الشعر الفنى

فى نظم شـــوقى بك

— ١ —

هل يستطيع الباحث الذى يعرض لشوقى بك أن يـلمّ به من كل نواحيه ؟ إننى أستبعد ذلك فان الشاعر الذى ظل فيض قريحته يملأ الشرق نيفاً واربعين سنة لاتتيسر دراسة شعره دون انقطاع طويل لهذه الدراسة لا تتهيأ أسبابه الآن لمتأدب فى مصر بل فى الشرق .

وليس من شك فى أن شوقى نظم كثيراً من ذلك الشعر فى شتى المناسبات وقد كان مقيداً فى معظمها بقيود أهونها عدم قدرته على التحلل من ظروف بيئته واتصاله ببعض الهيئات الرسمية شطراً كبيراً من حياته ، وهناك ظاهرة أخرى واضحة هى أن اتصال شـوقى بك بسواد الشعب محدود وهو لذلك لم يكن موفقاً كل التوفيق فى التعبير عن الأمانى الشعبية الخاصـة ، أما الأمانى القومية العامـة فهو فيها شاعر مصر المجلّى .

وإذا عرضتُ هنا لشعر شوقى بك فانما أعرض للجانب الفنى منه ، وحسبى درس الشعر الفنى بين ما نظمه شوقى فهو لُبُّ الشعر وغايته ، بل هو الشعر الذى يتطلبه العصر . أما شعر الحفلات والمناسبات والمجاملات فلا جدوى فنية منه ولن يبقى إلا ببقاء ذكرى مناسباته ، حينما الشعر الفنى هوشعر الخلود . وقد انتقدتُ شوقى بك مراراً فى حياته لعنايته بشعر المناسبات والحفلات كما انتقدتُ جانباً من أساليبه ، وآرائى فى ذلك معروفةٌ ولازالت هى هى ، فلا حاجة بى الى تكرارها خصوصاً وكل مايعنينى هنا انما هو الاشادة بحسناته وجوانب شعره الفنى .

— ٢ —

وستلاقى غير قليل من الجهد وأنت تتلمس الشعر الفنى فى « الشوقيات » . ولست أدرى كيف جاء ترتيب جمع القصائد فيه ، فلا هى جُمعت بالقافية والروى كما كان يفعل

الشعراء والناشرون القدامى ، ولا هى جُمعت حسب تقسيم الموضوع كما يفعل بعض المحدثين . ولكن الواقع ان عدم نشر شعر شوقى بالترتيب التاريخى جناية أدبية على شعر شوقى ذاته ، فسيقف الذى لايعرف مناسبات شعره بعد ذلك موقف الحائر لا يدرى متى قال هذا ومتى نظم ذاك ، لأن كل شعره فى صياغته وقوة نسجه سواء . وإنى لأذكر — كلما ساورتنى شبهة الترتيب التاريخى لقصيدتين من شعر شوقى — دأباً كان يردده سعادة احمد زكى باشا وهو :

« لا فضل لشوقى فى كل هـذا الشعر فانه رسول قوة ملهمة ، وليس للرسول أكثر من فضل أداء الرسالة » .

والواقع أن هذا الرأى جدير بالتأمل والتفكير ، فان شوقى كان شاعر أمة صاغته أمانيها وشحذته آلامها فخرج معبراً عن هذه الامانى مصوراً لتلك الآلام ، ولم يحدّ من ذلك غير عزلته بحكم ظروفه السياسية . خرج يؤدى رسالة العصر الذى يعيش فيه وقد لايدرى هو لماذا اختير دون غيره لاداء تلك الرسالة ولكنه يجد فى نفسه القدرة على أدائها والسلام . وهـذا الرأى يؤيد ماذهبنا اليه من أن قوة النسج والصياغة تكاد تكون متوازنة فى شعر شوقى قديمه وحديثه ، فهو شاعر عبقرى والعبقرية هبة تجىء وتذهب على غير مقياس تاريخى معروف ، بل لقد تنزل فى جيل لا يدرى أهله جميعاً من أمرها شيئاً !

وأذكر أن صديقاً من الادباء الممتازين كان واضح الاعجاب بالمعنى الذى تضمنه البيت الآتى الذى نظمه شوقى على لسان قيس فى رواية « مجنون ليلى » :

ليـلى ، منـادِ دعا ليلى فخفَّ له نشوانُ فى جنباتِ الصدرِ عربيدُ !

وكان الصديق يلقى البيت القاه بديعاً فذكره لشوقى وسأله عن ظروف نظم هذا المعنى الرائع . فاهتزّ شوقى للبيت لدى سماعه اهتزازنا له وغاص فى لجة من التفكير أذهله عن سؤال الصديق لحظة . فلما انتبه وذكر السؤال بادر الى الجواب ولم يكن إلا كلمة واحدة هى : « لا أدرى ! »

وهذا حق ، فان شوقى لم يكن يدرى كيف هبط هـذا المعنى عليه ، فهو وحى العبقرية !

ويذكرنى هذا بمقال جيد قرأته فى مجلة المقتطف (عدد نوفمبر سنة ١٩٣٢) عن شوقى بقلم الشاعر المعروف مصطفى صادق الرافعى درس فيه شوقى على طريقته فى

دراسة الشعراء . والواقع أن الرافعي وُفِّق فى مقاله الى حد لم يكن يُنتظر من أحد شعراء المدرسة القديمة . ولكن ثمة مسألة جديرة بالبحث : تلك هى اعجابه ببراعة شوقي فى استخراج المعانى وتوليدها من معانى غيره من الشعراء المتقدمين أوأخذه على شوقي عدم توفيقه الى ذلك . والرافعي شاعر نابه قد يكون بارعاً فى صنعته ولكن نصيبه من الروح الفنية محدود فى رأيي ، وقد يكون استخراج المعنى وتوليده واللعب بذلك أو التفنن فيه (كما يسميه) من كمال الصنعة عنده ولكنه ليس من كمال الشعر فى شيء ، فالشعر الفنى لا يجرى عليه مايجرى على سائر المنظوم من أقيسة التوليد والاستخراج : فانى مثلا لاأدرى تلك الصلة فى الاستخراج والتوليد بين قول شوقي

ما تراها تناست اسمىَ لما كثرت فى غرامها الاسماء !

وبين قول ابى تمام :

أتيتُ فؤادها أشكو إليه فلم أخلصْ إليه من الزحام !

مهما رأى الرافعي فيهما من صلة أو شبه صلة ، فليس يكفى أن يتشابه موقفان لشاعرين فى الحياة ليكون الأخير منهما مولّداً أو مستخرجاً لمعنى الثانى !

— ٣ —

وأبرز ضروب الشعر الفنى الذى نود أن ندرسه فى نظم شوقي هى الشعر القصصى والشعر التاريخى التحليلى والشعر الوصفى والشعر التمثيلى .

أما الشعر القصصى فقد عالجه شوقي فى شبابه وكانت له فيه بضع محاولات ثم انصرف عنه بعد ذلك أو لوته عنه ظروفه فلم يعد اليه ، وهى خسارة أدبية وفنية لا تعوَّض فلو أن شوقي استغلّ هذه العبقرية الشعرية الفياضة فى الشعر القصصى لكان لنا منه الآن فنٌّ خصبٌ آسرٌ .

وأما الشعر التاريخى التحليلى فهو لونٌ طريف فى الأدب الجديد ، وليس المقصود منه مجرد سرد لحوادث التاريخ لا تعتمد على أساس ، ولكنه دراسة لتلك الحوادث وتحليل لعناصرها ومقدماتها تحليل متفهم لمراميها مدرك لغاياتها .

وأنت ترى منها كيف يستطيع المؤرخ البارع أن يسجل حوادث التاريخ فى صدق ويستطيع مع ذلك أن يستولى على لبّك وان يشعرك بالعطف على قضيته أو على قضية بلاده ويكسب تأييدك لها ويوجه شعورك معه : تحزن إن حزن وتفرح لفرحته . وهكذا

كان شوقى الشاعر المؤرخ . ومن المدهش حقاً أن تعثر فى « الشوقيات » بل أن تطالعك بعد المقدمة القصيدة التى قالها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ والتى مطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

وإنك لتعجب إذ تقرأ هذه القصيدة بهذا النضوج المبكر لشاعرية شوقى من ناحية اللفظ والاسلوب، وتعجب بالشاعر الشاب المقيد بظروف ذلك العصر — الذى قال القصيدة فيه — كيف يتاح له أن يؤرخ لك هذه النزعة الشعرية الجديدة كأحسن ما يكتب شاعر عصرى مثقف اليوم إذا عرض لتاريخ مصر على الطريقة الحديثة . وفى الحق لقد عرف شوقى كيف يكتب تاريخ بلاده وينشر مجدها ويفخر به على العالمين :

وبنينا فلم تحل لبان وعلونا فلم يجزنا علاء
وملكنا فالملكون عبيد والبرايا بأسرهم أسراء !

فان هذه الروح القوية المدهشة جديرة بالاعجاب ، لا سيما إذا حافظت على مظاهر حيويتها حيث يقول :

قل لبان بنى فشاد فغالى : لم يجز مصر فى الزمان بناء
ليس فى الممكنات أن تنقل الأجـــبال ثمناً وان تنال السماء!

ثم انظر إلى هذه الروعة فى قوله :

أجفل الجن عن عزائم فرعو نَ ودانت لبأسها الآناء
شاد مالم يشد زمان ولا انشـــأ عصر ولا بنى بناء !

أو فى قوله يتحدث عن ديانات المصريين القدماء وهيا كلهم :

هيكل تنثر الديانات فيه فهى والناس والقرون هباء
وقبور تحط فيها الليالى ويوارى الاصباح والامساء!

ثم يعرض لبعض النظريات التاريخية الخاطئة التى يروجها بعض المؤرخين عن مصر وينبرى لدحضها :

فاعذر الحاسدين فيها اذا لا موا فصعب على الحسود الثناء
زعموا أنها دعائم شيدت بيد البغى ملؤها ظلماء
دمر الناس والرعية فى تشـ (م) بيدها والخلائق الأسراء

ثم يرد الحجة فى حماسة :

أين كان القضاء والعدل والحكـ (م) ـمةُ والرأىُ والنهى والذكاءُ
وبنو الشمس من أعزّة مصر والعلوم التى بهـا يُستضاءُ ؟!

ثم يعلل تسخير الفراعنة للأسرى :

ورأوا للذين سادوا وشادوا سُبّةً أن تسخّر الأعداءُ

ثم ينافر ويفخر فى قوة :

إنْ يكنْ غير ما أتوه فخارٌ فأنا منك يا فخارُ بَراءُ !

وهذه الروح القوية الصامدة لا يستطيع الباحث المدقق أن يردها إلى أواخر القرن الماضى ، فان روح التحليل والترتيب المنطقى فيها كثيرة على ذلك العصر .

وتسير القصيدة على هذه الوتيرة من تسجيل تاريخ الفراعنة ومجيد أعمالهم فى تحليل وفخر حتى يصل الى غزوة الهكسوس أو الرعاة للأراضى المصرية وهزيمتهم للفراعنة واحتلالهم لمصر ، فانظر الى تمهيده البارع :

ليتَ شعرى والدّهرُ حربٌ بَنيهِ وأياديه عندهم أفعاءُ
ما الذى داخل الليالىَ منا فى صبانا ولليالى دَهاءُ ؟!

ثم ينتقل الى سرد الوقائع فى تصدير بارع كذلك :

فعلا الدهرُ فوقَ علياء فرعو نَ وهمّتْ بملكه الأرزاءُ
أعلنت أمرَها الذئابُ وكانوا فى ثياب الرعاةِ من قبلُ جاءوا !

وتأمل الروح التى تسود هذا القول :

وأتى كلُّ شامتٍ من عِدا المـــلك إليهمْ وانضمّتْ الاجرَاءُ
ومضى المالكون إلا بقايا لَهُمُ فى ثرى الصعيد التجَاءُ

وانظر الى التأسّى والحسرة البارزة التى يمهد بها لوصف الهزيمة :

فعلى دولة البناةِ سلامٌ وعلى ما بنى البناةُ العفاءُ
واذا مصرُ شاةُ خيرٍ لراعى السـوء تُؤْذى فى نَسْلِها وتساءُ

وانظر اليه يصف ظلم الفاتح الغاشم :

قد أذلّ الرجالَ فهى عبيدٌ ونفوس الرجال فهى إماءُ

وانظرْ اليه كيف يصوّر سوء السياسة والتفريق فى المعاملة :

ولقومٍ نُواله ورضاهُ ولأقوام القلى والجفاءُ

ففريق ممتعون بمصر وفريق فى أرضهم غرباءُ

ثم أنظر اليه كيف ينقد هذه السياسة وينعى سوءها ويصوّر اثرها ويتحدث عن نفسيات الشعوب :

ان ملكتَ النفوسَ فابغ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مَضاءُ
يسكن الوحشُ للوثوب من الأسـ ـر فكيف الخلائق العُقلاءُ ؟!

ويصف عهد مصر تحت نير هؤلاء الرعاة ويبرر خنوعها لاستبدادهم ويعلل ذلك فى دقة المؤرخ المتزن :

لبثتْ مصر فى الظلام الى أن قيل مات الصباحُ والاضواءُ
لم يكن ذاك من عمىً ، كلُّ عين حجب الليلُ ضوءَها عمياءُ !

ويتحدث عن نهضتها للتخلص من ذلك الأسر :

ما تراها دعا الوفاءُ بنيها وأتاهم من القبور النداءُ
ليزيحوا عنها العدا فأزاحوا وأزيحتْ عن حقها الأقذاءُ
وأعيد المجدُ القديم وقامتْ فى معالى آبائها الأبناءُ

ويتحدث بعد ذلك عن تاريخ مصر فى ذلك العهد الذى عقب خلاصها من حكم الرعاة حديثاً كله الفخر وكله الاعتداد بمفاخره التالدة :

إيهِ سيزوستريسُ ماذا ينال الو صف يوماً أو يبلغ الاطراءُ ؟
كثرت ذاتك العلية أن تحصـ ـى ثناها الألقاب والاسماءُ
لك آمونُ والهلال إذ يكـ ـبر والشمس والضحى آباءُ !
ولك الريفُ والصعيد وتاجا مصر والعرشُ عالياً والرواءُ
ولك المنشآتُ فى كلّ بحرٍ ولك البرُّ أرضه والسماءُ

ثم يتحسرُ ويتمنّى لو لم تزل هذه الايام :

ليت لم يبلك الزمان ولم يبـ ـل لملكِ البلادِ فيك رجاءُ
هكذا الدهر حالةٌ ثم ضدّ ما لحال مع الزمان بقاءُ

وينصرف من ذلك الى الكلام على غزوة الفرس لمصر بقيادة قمبيز :

لا رعاكَ التاريخُ يا يوم قمبـ ـيز ولا طنطنتْ بك الانباءُ
دارت الدائرات فيك ونالت هذه الأمةَ اليدُ العسراءُ

ويستطرد متحدثاً فى لوعة الحزين ، ويصف أسر الملك فى حسرة الوطنى المتأسّى :

جيء بالمالكِ العزيزِ ذليلا لم تزلزلْ فؤادَه البأساءُ

يبصر الآلَ إذْ يراح بهم فى موقف الذلّ عنوةً ولجاءْ

ويصف أسر بنت فرعون ووضعها فى الاغلال واهانتها وتعذيبها على مشهد من أبيها :

بنت فرعون فى السلاسل تمشي أزعج الدهرَ عريُها والحفاءْ
فكأنْ لم ينهضْ بهودجها الدهـ ـرُ ولا سار خلفها الأمراءْ !

ويصف تعذيب فرعون واثارته بالتفنن فى وسائل الاهانة والاستثارة :

وأبوها العظيم ينظر لمّا رديت مثلما تردّى الاماءْ
أُعطيت جرةً وقيل اليك النهر قومى كما تقوم النساءْ !
فمشت تظهر الاباءَ وتحمى الدمع أن تسترقّه الضراءْ
والاعادى شواخصٌ ، وأبوها بيد الخطب صخرةٌ صماءْ !

وأنت تحسّ ولا شك بالقدرة العظيمة على تصوير الوقائع من هذه الأبيات الرائعة ، ومن الأبيات التى تليها :

فأرادوا لينظروا دمع فرعو ن ، وفرعون دمعه العَنقاءْ !
فأروه الصديق فى ثوب فقرٍ يسأل الجمع والسؤال بلاءْ
فبكى رحمةً وماكان مَنْ يبـ ـكى ولكنما أراد الوفاءْ
هكذا المُلكُ والملوكُ وإنْ جا ر زمانٌ ورُوِّعَتْ بلواءْ

ويكفى هذا القدر فالقصيدة طويلة وهى جديرة بالمطالعة والدرس لأنها من أجلّ ما نظم شوقى من الشعر الفنى بل هى جماع مظاهر فنه ، فتستطيع لو تأملتها أن تدرس فيها كل خصائص شعره الفنى وميزاته وإن كان قد طال عليها الوقت ، لأن روح شوقى لم تتغير كذلك ولم تتغير سمات شعره ولا خصائصه وإن تغيرت على مر الزمن أفكاره وآراؤه وبعض أساليبه .

وقد استطال استقراؤنا بهذه الناحية فى شوقى على غير ما يتسع المقام لأننا لا نطمع فى أن نرسم للقارىء دراسة وافية للشعر الفنى عند شوقى فى هذا الحيز المحدود ولا فى أضعافه ، ولكن كل ما نطمع فيه هو أن نثير فى نفسه الرغبة فى درس هذه الشاعرية العظيمة . فليرجع القارىء الذى يستهويه هذا الجانب ، جانب التحليل التاريخى من الشعر الفنى ، الى « الشوقيات » فانه سيجد روعته بارزة فى قصائد (صدى الحرب) و (نكبة بيروت) و (أبو الهول) وغيرها .

— ٤ —

أما الشعر الوصفي فنريد أن نسجل ـ قبل أن نتحدث عنه في شعر شوقي ـ ان هذا الضرب من الشعر الفني يفتقر اليه الشعر العربي كل الافتقار ، فان شعراء العرب الذين تعرضوا له ـ مع قلتهم ـ لم يتركوا لنا منه ثروة تمتع الرغبة الفنية ، وقد شغل أكثرهم عنه بشواغل السياسة أو الحياة أو العيش يسخرون لها الشعر ويصرفونه اليها دون الالتفات الى هذا الضرب الفني الصرف الذي لا يرضى إلا الفن .

لا ننكر أن بين عيون الشعر العربي قصائد وصفية رائعة ولكننا نقول إن الوصف كان ـ ولو نسبياً ـ من الفنون شبه المهجورة عند شعراء العرب ، فان كنا ننعى ذلك عليهم وقد كانت حياتهم على ما نعلم من جفاف ومن تشابه مملول فكيف نحن الآن في هذه الحياة الزاخرة الصاخبة التي تستدعي شيئاً من الفن يرفه عن النفس بعض هذا التكالب المادي البشع ؟!

وإذا كنا نعد القصيدة التي قالها شوقي في المؤتمر الشرقي الدولي جماعَ شعره التاريخي التحليلي فهناك قصيدة أخرى في شعره الوصفي لا تقل عنها روعة ورقة وجمالاً ونستطيع أن نقول مطمئنين إنها هي الأخرى جماع شعره الوصفي وان فيها جلَّ سمات وميزات هذا الضرب من شعره : هذه القصيدة هي الخاصة بحياة النحل. وان كل من لديه ولو فكرة بسيطة عن طبائع النحل ونظام معيشتها وعاداتها ليعجب من هذه الدقة التي استطاع شوقي ان يتوخاها والتي دلت على دراسته لهذه الحشرة في سنة ١٩٢٣ (وقت نظم القصيدة) معتمداً على مطالعاته في تأليف ميترلنك الأديب البلجيكي الشهير، فانك تدهش حين تقرأ لشوقي عن الملكة :

تحكمهم راهبةٌ ذكّارةٌ مغبِّرهْ
عاقدةٌ زنّارَها عن ساقها مشمّرهْ

وترى دقّته في وصف النحلة العاملة :

تلثّمتْ بالأرجوان وارتدتْه مئزرهْ
وارتفعتْ كأنها شرارة مطيَّرَهْ !
ووقعتْ لم تختلجْ كأنها مسمَّرَهْ !

ثم تنظر الى هذا التصوير الدقيق لعادات النحل :

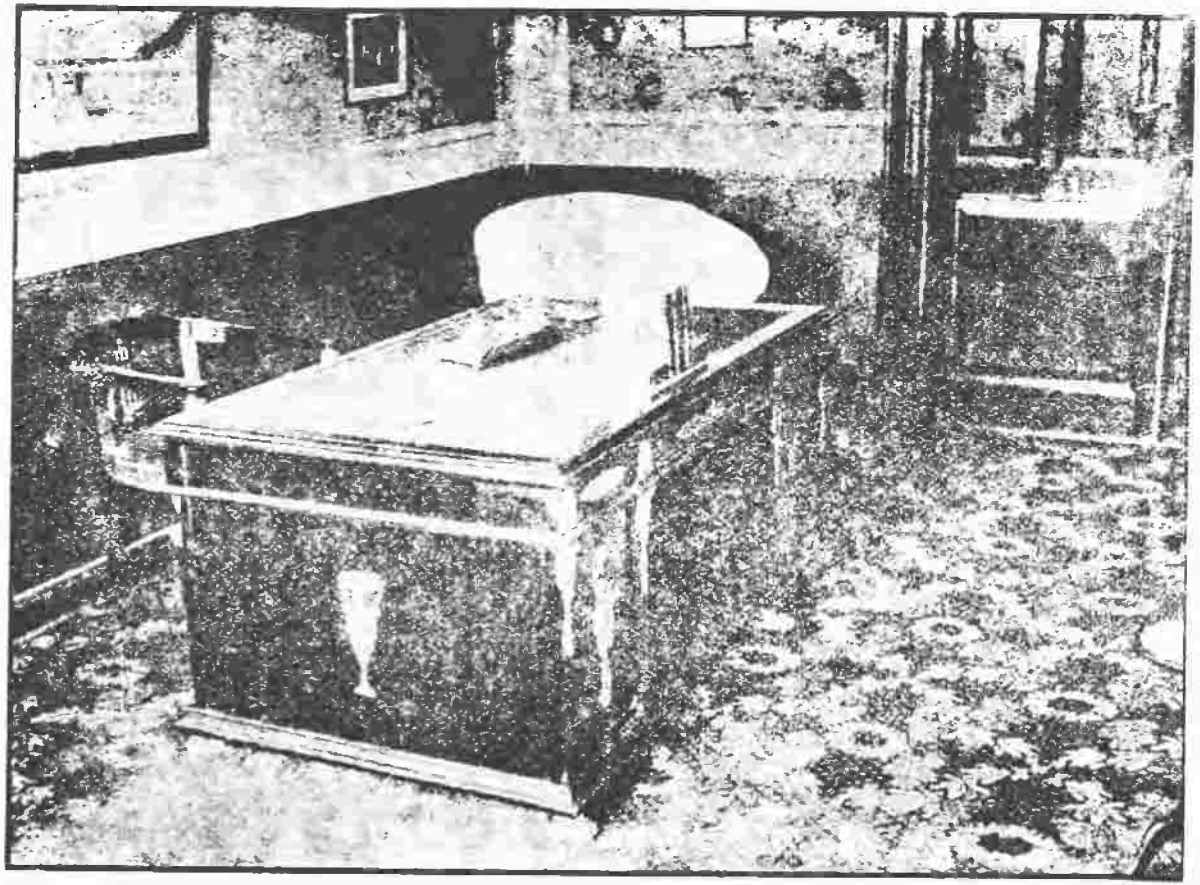

﴿ مكتب الفقيد الكريم ، وقلما كان يستعمله إذ كان يجلس ويؤلف فى حجرة نومه ﴾

تقتل أو تنفى الكسا لى فيه غير مُنْدَرَهْ
تحكم فيه قيصرَهْ فى قَوْمها موقَّرَهْ
من الرجال وقيو دِ حكمهم محرَّرَهْ
لا تُورث القومَ ولو كانوا البنين البرَرَهْ !
الملكُ للاناثِ فى الـ ـدستور لا للذكرَهْ !

وتنظر الى قوله يصف سرح العاملات لجمع الرحيق من الأزهار وعودتها الى أقراصها لخزن ما تجمعه :

وتذهب النحلُ خفا فاً وتجيء موقَرَهْ
جوالبُ الشمع من الـ خمائل المنوَّرَهْ
جوالبُ المادىّ من زهرِ الرياض الشيِّرَهْ

وما أوفق تسميته للمسالك بين الاقراص « بالأدورة » ووصفه لعودة النحل محملة اليها :

حتى إذا جاءتْ به جاست خلال الأَدْورَهْ
وغيَّبتهْ كالسلا ف فى الدنان المحضَرَهْ

وفى الواقع ان هذه دقة لا تتاح إلا لباحث قضى فى درس طبائع النحل وتأمل حركته وقتاً ليس بالقليل ، وهى تدل على مبلغ عناية شوقى بموضوعه واهتمامه باستيعاب كل فروعه والاطلاع على ما يتعلق به ، وهذا هو الذي تعبنا فى توجيه أنظار شعراء العربية اليه فليس يكفى أن يحفظ الشاعر طائفة من الالفاظ اللغوية وأن تطيعه أوزان الشعر ليملأ الدنيا نظماً فى غير طائل !

ولشوقى قطعة وصفية عن « روما » يصف فيها تماثيلها وهيا كلها :

وتماثيلُ كالحقائق تزدا دُ وضوحاً على المدى وإبانهْ
مَنْ رآها يقول : هذى ملوك الدَّ هر ، هذا وقارُهُمْ والرَّزانهْ
وبقايا هياكلٍ وقصورٍ بين أخذ البلى ودفع المتَانَهْ

ولا يجوز أن يعرض باحث للشعر الوصفى عند شوقى ولا يذكر قصيدته الرائعة فى (أنس الوجود) التى يقول فيها :

قفْ بتلك القصور فى اليمّ غَرْقَى ممسكاً بعضُها من الدعر بَعْضاً
كعذارَى أخفين فى الماء بضّاً سابحاتٍ به وأبدينَ بضّاً

أو قوله فى وصف جدّة نقوشها ورسومها :

رب نقشٍ كأنما نفض العنـ ـنعُ منه اليدين بالأمس نَفْضا !

ثم انظر الى دقة وصف رسوم الضحايا :

وضحايا تكاد تمشى وتَرْعَى لو أصابتْ من قوّة الله نَبْضا

ولا يمكن أن ننسى لشوقى قوله فى وصف منظر طلوع البدر :

يادرة الغوّاص أخرجَ ظافراً يُمْنَاهُ يجلوها على النظّارِ
متهللاً فى الماء أبدى نصفَه يسمو بها والنصفُ كاسٍ عارِ

أو قوله يصف ضاحية الجزيرة بالقاهرة فى قصيدة (رحلة الاندلس) المعروفة :

لبستْ بالأصيل حلة وشى بين صنعاء فى الثيابِ وفَرّ
قدّها النيلُ فاستحتْ فتوارتْ منه بالجسر بين عُرْيٍ ولُبْس

ويكفى هذا القدر من الشعر الوصفى . وفى الحق ان شوقى أضفى على الشعر العربى الوصفى خيالا جديداً رائعاً، وقداستطاع هذا الشاعر المنجب أن يدخل معانى رقيقة سامية فى ألفاظ جزلة فخمة .

— ٥ —

وقد أتحف شوقى جمهرة المتأدّبين أخيراً بهذه الروايات التمثيلية التى بدأتها رواية (مصرع كليوباترا) وأخراها فيما نعلم هى (عنترة) التى قضى رحمه الله ولمّا تخرج من المطبعة بعد . وقد كانت خطوة جريئة من شوقى أن يقدم فى كهولته بل فى شيخوخته الشعرية على مثل هذا العمل الجليل الشأن ، ولم يكن من السهل والحركة الذهنية لشوقى فى أواخر يقظتها تقريباً ولم تتعود فى نشاطها الأول إلا الغوص على معانى النظيم أن تجىء فتخلق الموضوع خلقاً تاماً وتخرج لنا رواية مؤلفة متماسكة الأجزاء تصور ببيئة خاصة وحياة خاصة وترسم شخصيات وعقليات ونفسيات جديدة. لم يكن هذا كله فى ميسور شوقى بك فى ظروفه الأخيرة فاستعان هذا الشاعر العظيم بالتاريخ ، التاريخ الذى يستطيع هو أن يهضمه وأن يتفهم دقائق مراميه فيجعل من احدى حوادثه أو انقلاباته نواة يرتكز عليها فى وضعه فكرة روايته الشعرية . وهكذا أخرج لنا شوقى (مصرع كليوباترا) و(مجنون ليلى) و (على

بك الكبير) و (عنترة) وكلها تمت الى التاريخ بصلة أو بشبه صلة ولكن المهم أن يتخذها الشاعر نواة يسير هو فى حبك خيالها .

وأنت ـ لهذه الطريقة المتشابهة فى روايات شوقى بك الاربع ـ تحس فيها كلها بروح واحدة متشابهة الأثر ، ثم ترى أن خصائص نظمها وسماته والروح الشعرية التى تسودها متشابهة كذلك لانك تستطيع أن تدرك عند اول قراءة لاحدى مقطوعاتها انها من شعر شوقى بك التمثيلى وإن لم تكن قد مرت عليك من قبل ، ويكفى أن تقرأ رواية من روايات شوقى لتدرس فيها روحه وخياله وخصائص شعره التمثيلى جميعاً: ففى مصرع (كليوباترا) ترى هذا الشاعر يوزع روحه وعبقريته على عدة شخصيات تتحدث كل منها فى ناحية ولكنها تتحد فى قوة الاسلوب والصياغة وإن تفاوتت أغراضها ومعانيها أحياناً .

غير أن هناك أمراً جديراً بالتأمل ، وهو أن شوقى بك كان فى بعض مواقف رواياته جريئاً على القيود الشعرية السخيفة التى فرضت على الشعر العربى فرضاً ثقيلاً وإن لم يجرأ عليها شوقى قبل ذلك فى حياته الشعرية الحافلة . وهو بذلك ساير الحركة التجديدية الأخيرة ومشى فى طليعتها ، فاستحق تقدير المجددين بعد خصومتهم .

وقد بعث شوقى فى نفوس المتأدبين ميلاً جديداً إلى الشعر التمثيلى ووجه اليه عناية الحياة الأدبية وإن لم يكن أول من فعل ذلك فقد سبقته عدة محاولات كان لبعضها شىء من التوفيق وإن كان نصيبها من التوفيق دون ماتستحق ، لأنها لم تقترن بنفوذ شوقى الاجتماعى . ولكن المأثرة التى لاينساها الشعر التمثيلى الآن لشوقى بك هى أن هذا الشاعر العظيم غامر فى الواقع بشهرته الأدبية الكبيرة لما دخل هذه الحلبة ، وانه استطاع بقوة منه أن يدخل على هذا الضرب روحاً جديدة وأن يثير حوله حركة أدبية محمودة .

على محمد البحراوى
سكرتير جماعة الادب المصرى

قم إلى الأهرام واسمع واطلع ... واقرأ الصيد وزهو الفاتحين
وترنم أغانا تشتفي على ... مر الدهر وتأدى للوليد
وادرس الأحجار واصدع بالذي ... لم يسعه قرطاس المؤرخين
ارو قومي من ذرى مجده ... المجد كالصباح المشتهى
قل لهم يا معشر أمة ... حررتها الحق وقوما حاربت
حلف الصبر على ثورتكم ... وأبى الناس عليكم يجبين
عزت البيت وللبيع من ... دم عليوم وصيد آمنين
فرأى عالم يتيه في زهوه ... مصر تستكبر والأقدمون
رجل تأدى إلى أمة ... ودرير يتولى الثائرين
وبعود نزل الوردي لا ... فاتحا بل مصلحا مستعطفا
وجموع تنزل ما اكتفت ... بالمرعى بالوفي سلفين
وسواد بيضاء أرجلهم ... آه لو كانوا السواد الغادرين
وشباب بتراث مصطفى ... نسمة الحق وطهر البيئة
وفتاه أنس أفئدتنا ... كان أسرى روحه في الراقدين
زادهم سمت بأني صحة ... كالحسام العضب والرمح الأصيل
ان تشيع الى الكثير الصبا ... أرهف الشيب وشى الناشئين

﴿ نموذج من خط شوقي بك ﴾

شوقى فى الشباب

قبس النبوغ فى الصغر

كرت ثمانية وثلاثون سنة على العام الذى قيده شوقى فى سجل تاريخ الادب العربى بقصيدته التى مطلعها :

« همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء »

وإنما رأيت أن تكون تلك القصيدة القديمة الجديدة موضوع هذا المقال ، لأن أمير الشعر قد نظمها وهو فى السادسة والعشرين ، فهى من أجل ذلك مرآة شبابه ، وشبابه المبكر ، وما نحب فى هذه الكلمة إلا أن نجلى عليك صورة الشاعر فى سن الشباب . نجليها عليك من شعره ، أو قل من قصيدته التى افتتحنا بمطلعها المقال ، والشعر كما يقولون مرآة الشاعر .

وأول ما يجب أن نلاحظه فى قصائد شوقى جميعاً أنها ذات طابع خاص يتميز به الشاعر عن سواه ، والطابع الخاص فى نثر الناثر البارع وفى شعر الشاعر الفنان يعرف من لفظه ومعناه ، ولكن طابع شوقى لا يقتصر على هذا الذى يشترك فيه الكتاب والشعراء طراً ، وإنما يضاف اليه طابع آخر جدير بالعناية والتحبيس : هذا الطابع هو الهدوء فى أدق المواقف والتعقل فى أذكاها للعاطفة ، وهدوء الرجل وتعقله يحملانه على التسامح مع من يضارونه ومن يحاسنونه ، وعلى الأخذ عن الأخلاق فى النقد والهجاء ، وعلى حشد ما يجب أن يحشد من المعلومات فى القصيدة التى يريد أن يخرج بها الى الناس ، ثم على ترتيبها وتبويبها وبطوالع المنطق فيها للحكمة والموعظة . هذا هو الطابع أو تلك هى الطوابع التى يتفرد بها شوقى فى الشعراء طراً ، وهو الى ذلك يمتاز بفضيلة ثانية ما أحسب أن شاعراً فى الغرب نافسه فيها ، فلكل امرىء فى حياته أطوار وتغيرات ، وما يعقل أن تكون أخلاق المرء وعاداته فى شبابه هى أخلاقه وعاداته فى كهولته وفى شيخوخته ، ولكن شعر شوقى فى الخامسة والعشرين هو شعره فى الستين من نواحيه جميعاً ، فما يستطيع أحد أن يفرق فى سجل الشاعر الموهوب بين ما أوحته اليه حياته فى الشباب وما أوحته اليه فى الشيخوخة ، وذلك لغز فى الرجل يخطىء من يعتذر عنه بأنه عاش طوال عمره فى بحبوحة من العيش فلم تنحرف حياته أبداً .

نعم إنه لاعتذار المخطىء ، فاذا كان شاعر العصر لم تدركه علة الفقر فالغنى يدركه الكثير من العلل : يدركه الحب وهو علة ، ويدركه طيش الشباب وهو علة تصيب الثرى أكثر مما تصيب الفقير ، لكن مستوعب شعر شوقى لا يجد فيه أثراً لبرحاء الحب ولا لطيش الشباب .

ولقد أحببت أن أبحث عن تفسير لهذا اللغز ، وبدافع من هذه الرغبة اخترت قصيدته التى قرأت مطلعها عليك ، فقد أوحى بها الى الشاعر وهو فى عهد الطيش والنزق والمغامرة من عهود الشباب ، وهى مع ذلك قطعة رصينة هادئة مرتبة يبهرك منها المعنى أولا والعلم ثانياً ، فقد رتب أمير الشعر فيها تاريخ مصر ترتيباً لا يتأتى لغير عالم فى التاريخ ، حتى الأقاصيص القديمة حشدها فيها حسبما تلزم المناسبة ، وكان ذكره للتاريخ فى إيجاز غريب لا يتأتى مع الشعر إلا إذا كان صاحبه نابغاً فذاً .

وقبل أن أرتب لك التاريخ فى هذه التحفة الفنية الخالدة ، أنبهك الى أن الرجل قد تعلم فى أوروبا ، وتعلم المتعلم فى أوروبا لا بد أن يغير فى طابعه شيئاً ، ولكن شوقى فيما يظهر من شعره لم يكن إلا مصرياً عربياً يهزه الشرق دون الغرب ، وستجلى عليك هذه القصيدة التى قالها بعد عودته من اوروبا بزمن قليل ، فتعرف كيف لم يتأثر الرجل بمدنية الغرب وطابعه وحيويته .

وأدعوك أيها القارىء إلى التريث قليلا حتى أقول لك إن شوقى — عوض الله العربية عنه خيراً — لم يكن إلا مجدداً إلى أبعد حدود التجديد ، فما عرفنا شاعراً فى العربية يدخل على شعره من العلم ما حرصت قصائد شوقى عليه ، فهو قد طوع العلم للشعر تطويعاً نادراً ، وتكلم عن التاريخ ومجد الاختراعات والمخترعين ، حتى ليتيقن من يقرأ شعره أنه قد ألف فى القرن العشرين وللقرن العشرين وحده ، وما نعرف شاعراً فى العربية قد جدد الألفاظ وصقلها وأحياها بالاستعمال كما فعل شوقى عليه رحمة الله .

والقصيدة التى اخترناها موضوعاً لهذا الحديث قد نظمت عام أربع وتسعين وثمانية وألف أى منذ ثمانية وثلاثين سنة ، فاذا لاحظت كيف كان نصيب مصر من المدنية على هذا العهد عرفت أن شوقى لم يكن إلا سيد المجددين .

وتتألف (كبار الحوادث فى وادى النيل) من ثلثمائة بيت إلا قليلا ، وقد رتبت من ناحية التاريخ ترتيباً غريباً فى دقته ، وكان مستهلها فى وصف البحر ، إذ قالها الشاعر النابغ فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد فى مدينة جنيف فى سبتمبر من عام ١٨٩٤ وكان مندوباً للحكومة المصرية فيه . وبعد الابداع عن البحر كان الابداع فى

وصف صانعه وهو الله . ثم تطرق الى الاشادة بمجد مصر القديمة وعظمة ملوكها ، وكيف شادوا الأهرام وسواه من الآثار الخالدة واتخذ من هذه المناسبة فرصة للرد على ما ادعاه بعض المؤرخين من أن هؤلاء الملوك لم يكونوا إلا الظلمة المتجبرين . فلما أن تركت القصيدة هذا العهد خرجت الى الاسف على حال البلاد لما دخلها الهكسوس فهدموا آثارها وظلموا أناسها ، وأنحى باللائمة على المغتصبين فهجاهم ألذع الهجو . ثم تكلم الشاعر عن ظهور أحمس ودحره للهكسوس وإشراق المجد القديم على مصر ، حتى إذا وصل الى رمسيس مجده وذكر مآثره ومآثر جده سيتى وتكلم عن سيزوستريس والآلهة المصرية القديمة وروى عنها بعض الأقاصيص ، ولم ينس الأدب فى ذلك العهد الغابر فتكلم عن بنتاؤور .

فلما أن تجاوز الشاعر هذا العهد من عهود التاريخ ذكر فتح فارس لمصر بمليكها قمبيز ، وكيف أساء الفاتحون الى البلاد ، وتوغل فى دقائق التاريخ فذكر كيف ظلمت الأسرة الملكية المصرية إذ ذاك :

جيءَ بالمالكِ العزيزِ ذليلا ... لم تزلزلْ فؤادَه البأساءُ
يبصر الآلَ إذ يراح بهم فى ... موقف الذلّ عنوة ويجاءُ
بنت فرعون فى السلاسل تمشى ... أزعج الدهرَ عريُها والحفاءُ
وأبوها العظيم ينظر لمّا ... رديت منهما تردّى الاماءُ
أعطيت جرةً وقيل اليك النهـ ... ـر قومى كما تقوم النساءُ
فمشت تظهر الاباءَ وتحمى الدمـ ... ـع أن تسترقه الضراءُ
فأرادوا لينظروا دمع فرعو ... ن وفرعون دمعه العَنْقاءُ!
فأروه الصديق فى ثوب فقرٍ ... يسأل الجمع والسؤال بلاءُ
فبكى رحمةً وما كان من يبـ ... ـكى ولكنما أراد الوفاءُ
هكذا المُلْكُ والملوكُ وإنْ جا ... د زمانٌ ورُوِّعَتْ بلواءُ،

هذه قصة من التاريخ القديم ساقتها المناسبة الى الشاعر سوقا ، وإنما ذكرناها كلها لتعلم منها كيف كان الرجل يذكر التاريخ فى قصيدته ، حتى الاقاصيص لم يغفلها فى سجله الرائع ، ولم يكد الرجل يختتم قصة الفرس حتى وقف أمام فتح الاسكندر لمصر وتخليصها من أيدى العجم فالبطالسة ، وما كان من حكم كليوباترة وقصتها مع أنطنيو وأوكتافيو وموتها منتحرة ، ثم دلف الى روما فمجد دولتها وأشاد بما كانت عليه من عز ومنعة .

ثم فصل فى تمجيد الله عجيب ، وفى تعقيب شوقى بتمجيد الله على ذكر مجد مصر والرومان معنى عظيم الروعة والجلال . فلقد شاء له ايمانه أن يمجد الله ما دام قد مجد مخلوقاته أولا وشاء له إخلاصه أن يعتذر عن عبادة مصر القديمة لمعبوداتها المعروفة ويبرر هذه العبودية وشاءت له عنايته بالعلم والتاريخ أن يذكر هذه المعبودات القديمة . واختار لها هذه المناسبة فاسمع :

ربّ شقت العباد أزمان لا كتـ ـب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى جمعتها الحقيقة الزهراء
فاذا لقبوا قوياً إلـهاً فله بالقوى إليك انتهاء
وإذا آثروا جميلاً بتنز يه فان الجمال منك حباء
وإذا أنشأوا التماثيل غراً فاليك الرموز والايماء
وإذا قدروا الكواكب أربا باً فمنك السنى ومنك السناء
وإذا ألهوا النبات فمن آ ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يمموا الجبال سجوداً فالمراد الجلالة الشماء
وإذا يُعبد الملوك فان الملك فضل تحبو به من تشاء
وإذا تُعبد البحار مع الأسماك والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأر حام والأمهات والآباء
لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر شف عنه الحجاب فهو ضياء

وأخذ شوقى بعد ذلك يمدح آلهة مصر فتناول إيزيس وآبيس وأوزيريس. فلما أن جاء موسى استقبله بالحفاوة الشديدة وذكر قصته مع فرعون ، حتى إذا ولد عيسى هلل له وكبر ، ثم نعى للقراء دولة القياصرة وتقوض صرح روما وذهاب ريحها .

فاذا وصلت القصيدة الى النبي ألم بمولده وجهاده وسيرته عليه الصلاة والسلام وامتدح صفاته امتداحاً رائعاً وذكر كيف اتسعت دولة الاسلام ، فاذا امتدح الاسلام أوجب الشاعر على نفسه أن يمتدحه فى مصر فتكلم عن عمرو بن العاص وما آثره ، فصلاح الدين الأيوبى وقصة الصليبيين معه ، فدولة المماليك ، فدخول نابليون ، فمحمد على باشا ، فسعيد ، فعباس .

ولا بد من تعليق يقتضيه المقام على هذا التاريخ فهو كتاب مفصل لتاريخ مصر

ليس أبدع منه فى ايجازه واسهابه . ومن أراد أن يلم بتاريخ مصر فعليه بهذه القصيدة العصماء التى تثبت أن العلم يطاوع الشعر ولا يعصيه ، والتى تثبت أن الشاعر قد قرأ فى حداثته الكثير المفصل عن مصر والعلم ، وهذا العلم هو الذى أبعد طيش الشباب عن شوقى فقد توفر عليه رحمه الله فى صباه حتى صرفه تقريباً عن كل ما عداه من مرح ولهو ومتاع .

* * *

وبعد ، فانا ذاكرون لك بعض الأبيات العظيمة فى هذه القصيدة التى نصف إن نسمها ديواناً ، بل هى ديوان شعر وسجل تاريخ وكتاب علم وسفر دين كل منها رائع عجيب .

سنذكر لك بعض الأبيات وإن كان المختار يحار فى أيها أشهى للنفس، فترى كيف كان المعنى وكيف كان اللفظ وكيف كانت الموسيقية عند شوقى وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين من العمر .

نذكر لك روعة الوصف فى قوله :

ضرب البحر ذو العباب حواليها سماء قد أكبرتها السماء
ورأى المارقون من شرك الار ض شباكاً تمدها الدأماء
وجبالاً موائجاً فى جبال تتدجى كأنها الظلماء
ودوياً كما تأهبت الخيل وهاجت حماتها الهيجاء !

فهل رأيت فى وصف البحر أبرع من هذا الذى نظمته يراعة فتى فى السادسة والعشرين ، وكيف ترتفع السفينه فكأنها تسير فى السماء وكيف تمد الشباك فى الدأماء (البحر) فاذا السفين يسير فيه كما تروح الروائح وتغدو العوادى فى الارض ، ثم كيف تتماوج الجبال وتدوى الموجة كالجواد المسرع وتتسلسل اللجج وتتصل كالهضاب فى رمال الصحراء تتغاير كل صباح وكل ليل فاذا وصف السفر قال:

نازلات فى سيرها صاعدات كالهوادى يهزهن الحداء !

الله لهذا البيت الذى ينتقل بك من ضوضاء المدينة وحياتها إلى صميم الصحراء ، ويعود بك إلى ما قبل ألف سنة فاذا بحداء العربى لناقته يملأ اذنك ويطربك، وكأنك تسمعه وتوقعه بقدميك !

ثم اسمع تسبيح الأمواج لله :

واذا ما علت فذاك قيام وإذا ما رغت فذاك دعاء !
فاذا راعها جلالك خرت هيبة فهى والبساط سواء !
والعريض الطويل منها كتاب لك فيه تحية وثناء !

نعم ترتفع الموجة فيقول الشاعر ان ارتفاعها قيام للصلاة وترغى فصوت ارغائها دعاء الله ، حتى اذا هالتها عظمة سيد الكون بعد أن أخذت تستطلعها فى سيرها وارتفاعها زمناً خرت ـ والموجة تمر وتتلاشى ـ فسقوطها وانبساطها اجلال للخالق واكبار ، فاذا انبسطت فهى كتاب مفتوح ليس فيه الا حمد لله وثناء ، فهل قال هذا شاعر من قبل ؟ ! هل قاله وفيه هذا الاتزان والتكافؤ والتشبيه والموسيقية واللفظ ؟؟. ثم هل قاله شاعر عربى وهو لم يتجاوز السادسة والعشرين ؟

وإذا جاء ينبوع الحكمة فاقرأ :

إن ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ ـر فكيف الخلائق العقلاء ؟!
يحسب الظالمون أن سيسودو ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائر مثلما جا روا وللدهر مثلهم أهواء

حكمة تقال فى كل زمان ومكان ، تُقال فى الظالم وفى الدهر فتردع من يظلم ، وترد من يطغى وتذكر من غره النسيان . حكمة قدت من التجارب قدّاً واستلت من التاريخ استلالا ، والتاريخ موعظة وعبرة لم يغفلها شوقى ابداً ، فهو لا يرويه غراماً فى الفخر بالعلم ، وإنما يرويه ويبرز منه الحكمة فيذكرها محكمة رائعة منطبقة على كل مناسبة .

والآن نعود بك إلى قطعة ذكرناها عن ظلم الفرس للأسر المصرية المالكة فأعد قراءتها تتملك جسدك قشعريرة ، وتأخذك الضغينة على الظالم والتفجع للمظلوم ، فهل أعظم من وصف هذا الاضطهاد مما ذكره شوقي، وإذا أسهبت كتب التاريخ فهل تستطيع أن تصل الى اعماق نفسك وتصف الحال كما وصفه هذا الشعر العتيد ؟ واليك بعد ذلك أبياتاً فى الهجاء قالها شوقي عن كليوباترة والأفعى التى لدغتها فماتت :

سلبتها الحياة فاعجب لرقطا ء أراحت منها الورى رقطاء !
لم تصب بالخداع نجحاً ولكن خدعوها بقولهم حسناء !
قتلت نفسها وظنت فداء صغرت نفسها وقل الفداء !

هجاء ليس فيه على مرارته قبح ولا فجور ، وانما روعى فيه التجديد فما خرج فيه الشاعر عن أخلاق الرجل المهذب ، ولو انه وصف كليوباترة بالحية والحية خير ما توصف به المرأة الجميلة المغرية الخادعة ، ولو إنه قال أن قتلها لنفسها أحقر من أن يكون تكفيراً عن سيئاتها ، ثم ولو أنه أصغرها حتى عن القدرة على الخداع فقال إنها لم تخدع وإنما خدعت بالاطراء فظنت نفسها اميرة القلوب وسلطانة الهوى والغرام .

ونحيلك فى ذكر المدح على القطعة التى مجد بها الله فى هذه التحفة الرائعة والتى عرضناها عليك ، فالحق أن للناس أهواء هى التى حملت بعضهم على تأليه القوىّ ، وبعضهم على تأليه الجميل ، وتأليه الأوثان والكواكب والنبات والجبال والملوك والبحار والأسماك ولكن مرجع هذه الآلهة كلها إلى الله خالق تلك الآلهة ، فأنعم به اعتذاراً عن شتى ألوان هذه العبودية !

وإذا قرأت فى وصف شريعة عيسى عليه السلام :

لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء
ملك جاور التراب فلما ملّ نابت عن التراب السماء !

أخذتك روعة ليس لجلالها حد ؛ ففى بيت واحد أجمل شوقي فى شريعة عيسى فأسهب وجمع ولم يترك قولا لقائل . ولقد ذكرت فى أول الحديث أن الرجل كان مسالماً متسامحاً وفى هذين البيتين دليل المسالمة والتسامح : ففى البيت الثانى مزق الشاعر بلباقة من قصة عيسى والخلاف عليها بين المسلمين والمسيحيين .

أما مدح سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فاسمع منه:

فرأى الله أن تطهر بالسـ ـيف وأن تغسل الخطايا الدماء
وكذاك النفوس وهى مراض بعض أعضائها لبعض فداء

فلقد وجب الجهاد فى سبيل الله إذ ذاك .

أيرى العجم من بنى الظل والمـا ء عجيباً أن تنجب البيداء
وتثير الخيام آساد هيجا ء تراها أسادها الهيجاء ؟

ثم يتدرج الحديث الى تاريخ مصر منذ فتحها عمرو بن العاص ، فيتكلم عن عمرو وعن صلاح الدين واشتباكه مع الصليبيين وفى ذلك يقول :

ليس للذل حيلة فى نفوس يستوى الموت عندها والبقاء !

فهل فى الفخر والمدح أروع من هذا ؟ ضاق الذل بالمسلمين ذرعاً وهو يحاول الدخول فيهم فلا يستطيع ! وكيف يستطيع وهم قوم يستوى عندهم الموت والحياة ؟!

ثم ذكر المماليك فسجل عليهم مساوئهم حتى فى جباية الضرائب ، فلما جاء نابليون استقبله الشاعر بفصل جاء فيه :

ولو استشهد الفرنسيس روما لأتتهم من رومة الأنبـــاء
علمت كل دولة قد تولت أننـــا سمها وأنا الوباء !

يثبت لك هذان البيتان ان الرجل فى سنه المبكر لم يقتصر فى قراءته على كتب العرب . فلقد ذكر روما وذكر الامم التى احتلت مصر جميعاً وأنبأ عن كل منها فى جمل قصيرة ، ولو أن نابليون سمع ما قيل فيه لعلم أن هناك من هو أخلد منه على الدهر ، فاسمع :

سكتت عنه يوم عيرّها الأهرام ، لكن سكوتها استهزاء !
فهى توحى اليه : أن تلك واتر لو ! فأين الجيوش ؟ أين اللواء ؟

الأهرام تهزأ بنابليون وتعرف من أمر المستقبل ما لا يعرفه سواها . هذه المطلعة الخالدة الثابتة فى مكانها والجيوش تتحرك وتقهر وتنتهى حينما الأهرام تلقاها بالاستهزاء لأنها تعرف السر الروحى فى هذه البلاد وتعلم ما يخبئه الزمن فى جعبته !

نعم انتصر وافعل ماشئت فستخذلك فى القريب واترلو ، بل وستقبر قوتك وتطيح بفتوحك الى الأبد !

ولقد هزت الشاعر نكبة مصر بقناة السويس ، وألهمته أبياتاً رائعة تضمنها الحديث عن سعيد :

جمع الزاخرين كرهاً فلا كا نا ، ولا كان فى ذلك الالتقاء !
أحمر عند أبيض للبرايا حصة القطر منهما سوداء !

وأنا أترك لك استبانة الجمال فى هذا الشعر ، لأقول لك فى خاتمة هذا المقال الذى نالت العجلة منه ، أنك تلمح اعتداد شوقي بنفسه وبقدرته فى أكثر قصائده ، فهو يختتم هذه القصيدة بالحديث عن عباس الثانى وعن نفسه معاً :

عزيز الأنام والعصر سمحاً فلقد شاق منطق الاصغاء
إن عصراً مولاى فيه المرجّى أنا فيه القريض والشعراء
هذه حكمتى ، وهذا بيانى لى به نحو راحتيك ارتقاء
كيف تشقى بحب حلمى بلادٌ نحن أسيافها وحلمى المضاء !!

تكلم عن عباس وعن نفسه معا لأنه قضى شبابه ببابه ونال من عطفه. فالشاعر الفذ الذى يحس نبوغه وهو فى السادسة والعشرين ، هو رجل ثابت العزيمة لا بد أن يصل الى المكانة التى يريدها .

هذه كلمة مجلى عن الشاعر المجيد فى شبابه المبكر ، فهل تصلح صورة للرجل فى ذلك العهد ؟ إن تكن صورة فهى فى ملامحها وألوانها مرآة شاعر قد تسنم ذروة النبوغ شاباً ، فلو أنه مات فى السابعة والعشرين لكتب له من الخلود ما يكتب له اليوم ، وتلك ميزة الزعامة تبدو فى كل عهد وكل موطن وكل زمان .؟

محمد عزيز

◆◆◆◆◆

منزلة شوقى وأثره

تجرى حوادث الطبيعة والاجتماع على معايير تختلف قيمتها وآثارها باختلاف الوضع والزمان . وتحتكم هذه المعايير فى الحياة الانسانية فلا تفوت للانسان من حرية الاختيار الا قدراً بينه وبين الجبر الصرف فارق ضئيل لا يكاد يُرَى !

أما هذه المعايير فلا ضابط لها فى تصريف حظوظ الناس : فهى تضرب فى ذلك عن غير قصد وتخبط خبط عشواء ، وترمى أحد الناس بأشد الكوارث وتحبو الآخر بمباهجها وتزوّده بما فى وسع الدنيا ان تزوّد به الذوات الفانية من المجد والعظمة العالمية .

وأنت ترى ان فى التاريخ حوادث لا تعيد نفسها ، على الضد مما يذهب اليه البسطاء إذ يقولون أن التاريخ يعيد نفسه . فان التاريخ يتعاقب وتتشابه اجزاؤه . أما أن يعيد نفسه فوهم من الأوهام وتجريد للذهن لا أثر فيه من الحقيقة . والانسان بطبعه محتاج للاوهام شديد الميل الى التجريد والى الاشياء الخفية المقنعة يجرى وراءها ويعبدها من دون كل الاشياء التى جعلته انساناً حقيقياً بصفات الانسانية !

من الامثال التى نضربها على ذلك امثال يمكن ان نتناولها من اطراف الحياة الانسانية على اختلاف وجوهها ونلاحق صورها الشتيتة : فان غاليليو مثلا قد

يوجد فى عالم يحتاج الى فكر مثل فكره ليكشف عن سر نظامه الفلكى وعن أن الارض هى التى تدور حول الشمس . وهذا الحادث لن يتكرر فى التاريخ ، فمرة واحدة لا أكثر يمكن ان يوجد نظام كالنظام الشمسى يحتاج فى كشف سره . ومرة واحدة تتهيأ الفرصة لانسان مثل غاليليو ليستعين بالرياضيات والبصريات ليعرف ذلك السر . كذلك كان الامر مع نيوتن فان النظام الذى كشف عنه غاليليو كان يحتاج الى تعليل، ومرة واحدة يوجد نظام فلكى كنظامنا الشمسى يحتاج الى تعليل ويكون من نصيب نيوتن . ومرة واحدة يحتاج نظام النشوء العضوى الى تعليل فيكون من نصيب داروين . وهذه الحوادث وأمثالها لن يعيدها التاريخ ، فانها انما تقع لاول وآخر مرة فى تاريخ الدنيا وتكون من نصيب أفراد خصوا بأرقى الكفايات ، كما خصوا بأسعد الحظوظ . ومرة واحدة أيضاً تظهر دولة كدولة المغول لا تعرف للفن قيمة ولا للآداب وزناً ولا للمدنيات حرمة ، تمضى فى سبيلها الحربى وتنوء بقواتها على الدولة العربية فتحطمها وتبيد آثارها وفنونها وتقضى على آدابها وتترك الشعر فى هذه الدولة العربية — بعد ان أتت على الطارف منها والتالد — يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة . ومرة واحدة بعد ذلك يظهر شاعر كشوقى فيتلقى بقايا الشعر العربى الذى أبقت عليها دولة المغول فيحيى منه الموات ويصبح بحكم الظرف الذى وجد فيه ، وبحكم المواهب التى مكنته من احياء الشعر العربى ، أمير الشعراء ورافع علم الأدب العربى فى طليعة القرن العشرين . فمجد شوقى إذن يكون عنصران لا ينفصلان : عبقرية غير منكورة ، وحظ باسم أبقى عليه القدر طوال قرون ليجعله من نصيب مصر وشاعرها العظيم .

فمنزلة شوقى اذن من الشعر العربى منزلة الحلقة تصل بين ماضى الشعر فى العربية وبين العصر الحاضر ، لا ليقف امرها عند هذا الحد ، بل لتتجلى بامانة الشعر كما خرجت من أيدى القدماء ثم ليُصَبَّ فى القالب الذى سوف يَصُبُّهُ فيه المجددون من أبناء القرن العشرين فى العالم العربى . ومرةٌ واحدةٌ أيضاً تتهيأ الفرصة لعبقرى موهوب يجد فيها الشعر العربى محتاجاً للتجديد ، ومحتاجاً لاقتحام أبواب الحياة الواسعة المستفيضة ، فيخرجه من الحيز الذى حبسه القدماء فيه حتى مات على يد المغول ، ثم نفخ فيه شوقى نسمة الحياة . أما ذلك العبقرى السعيد الموهوب فمن ذا يكون ؟ القدر وحده كفيل بان يخرجه من الاصلاب الى البطون ثم الى الحياة ثم الى التراب ، بعد ان يبنى المجد بلبنات الفنون ، ويترك للشعر العربى آثاراً مخلدة .

بجانب هذه الناحية التى يهيء فيها الزمان قليلاً من الموهوبين السعداء لظروف لن يعيدها التاريخ ليبنى بتلك الظروف اعظم صرح فى هيكل مجدهم ، تجرى الطبيعة على أقدارها فتظلمهم ، ويكون ظلمها متزناً مع ما هيأتهم به فى ظروف الحياة السعيدة ! فان الطبيعة تلقى فى قلوب الناس ان ذلك العبقرى الموهوب يجب أن يكون مجرداً عن النقائص متحلياً بكل الكمالات الانسانية . وقد يسعده الحظ حيناً فيجرى الناس على أنه ذلك الرجل ، فاذا دارت عجلة الزمان دورة أخرى ، وتخطت بالناس عصر ذلك الرجل الكبير ، وجددت الحظوظ العالمية فى مراقى العلم والفن ، قيس قدر الرجال دائماً بمقدار الفارق بين الزمانين وبمقدار ما دارت عجلة الزمان على الاشياء وعلى عناصر الاشياء وعلى الفنون والآداب ، فيخرجون من جماع ذلك بما نعتبره الظلم الاكبر فى وزن الرجال وتقييم أعمالهم ووزن آثارهم !

غير أن شاعرنا الكبير شوقى قد يخرج عن هذه القاعدة بعض الشيء وقد يتناوله سلطانها فى أكثر الاحيان . يخرج عنها لانه أحيا قديماً ولم يبدع جديداً ، ويدخل تحت سلطانها لانك لن تستطيع ان تقيم شوقي وان تزنه الا بميزان تضع فى احدى كفتيه الشعر القديم ، أو بالاحرى مبدعات الشعر القديم ، وفى الأخرى شعر شوقي . على أنك لا تلبث ان تفعل هذا حتى تجد ان كفة شوقي قد شالت وشارفت على السماء ، وأن كفة الشعر القديم رجحت وقاربت الأرض ! هذا اذا انت مضيت تقارن المختار من المجموع القديم الذى أفلت من تخريب المغول ، بالمختار من شعر شوقي . وانك لواجد بعد ذلك أن الدعوى العريضة التى يدعيها الذين اخذتهم صيحة المبالغة والعجز عن تقييم الآثار الادبية من أن شوقي قد جدد فى أساليب الشعر وفى معانيه وتراكيبه ، دعوى لا يستطيعون أن يقيموا دليلا واحداً عليها . فان شوقي شاعر جديد بعصره وزمانه ، قديم باساليبه ومعانيه وتراكيبه ومنازعه ، وقد يشارف فى بعض هذه النواحى على افق الطبقة الثانية من القدماء ، وقد ينزل فى نواح أخرى الى الطبقة التى رضيت بامثال صردر وأبى الشمقمق ان يكونوا شعراء ، بالمعنى الذى نفهمه من الشعر فى دواوين البحترى وابى تمام وابن هانيء والمتنبي .

أما الفارق الوحيد الذى يفصل بين شوقى وبين شعراء العهد القديم فتجديده فى القوالب التى صبّ فيها الشعر العربى . وغالب الظنّ ان عبقرية شوقي مسوقة الى هذا غير مختارة . فان لروح العصر والبيئة حكماً اضطر شوقي لأن يصبّ الشعر

القديم باساليبه وتراكيبه ومعانيه فى قوالب يمتزج فيها روح الأدب العربى الصميم بحاجات هذا العصر ومقتضيات البيئة . ولولا هذا لما استطعنا ان نقول إن شوقي قد أحيا الشعر العربى ، لان احياء هذا الشعر معناه اقتباس الاساليب القديمة ، وصبها فى قوالب تلائم ذوق هذا العصر . وان هذا الأثر وحده لجدير بان يجعل شوقى أمير الشعراء فى عصرنا هذا ؟

اسماعيل مظهر

◆◆◆◆◆

شعر شوقى

مضى أربعون عاماً أو نحو ذلك وشوقى يحمل لواء الشعر العربى وجعل شعراء العرب يسيرون وراءه فى جميع الاقطار العربية ، ويقرؤون شعره ويغبطونه او يحسدونه على مكانته . فكان لشوقى الفخر فى الحصول على هذه الزعامة رغم ما لقى فى سبيل ذلك ، وكان له الفضل فى أن جعل وادى النيل منبع هذا الشعر وموطنه ، وكان لمصر أن تزهو بما أوحت اليه من أخيلة لا شك فى أنها هى موردها العذب : فان ما نزل بها من حوادث وما مر بها من إحَنٍ وما بقى بها من أثر تلك الثقافة العربية المتأصلة فى نفوس أدبائها وعلمائها ومن أساليب التفكير لديهم وفى نوع الادراك والتعبير ، ثم ما يتمشى فيها من أثر الدين والاخلاق فى نفوس أبنائها — كل ذلك ملك من نفس شوقى وهذب من خياله وكشف له عن دقائق الافتنان حتى أصبح كما رأيناه ، عرفه الناس من كبار الفنانين والشعراء واكتسب هذه القريحة النادرة التى شهد له بها جلة أدباء العرب وشعراء العربية .

ربما كان الحكم على شعر شوقى الآن عسيراً او ناقصاً او خاطئاً لأن المعاصرين لكبار الرجال لايكادون يحكمون عليهم حكماً صحيحاً خالياً من الحقد أو مملوءاً بالاعجاب لما يكون من أثر فى النفوس بسبب الاتصال بهؤلاء الرجال بنوع من الحب أو البغض . وكثيراً ما يدفع الغرور بالناس فى بعض العصور الى الجرأة فى الحكم على المسائل الفنية الخالصة بدون علم سابق ولا دراسة صحيحة ولا ثقافة كافية ولا سيما فى الحكم على الأدب والأدباء من شعراء وكتاب وبخاصة فى أوقات الفوضى العقلية التى

تكون فى عصور الانتقال كما هى الحال فى بلاد الشرق الآن . ولكن على الرغم من ذلك فان للفنون شعاعاً يخترق حجب الظلمات ويمزق ستور الضغائن : فان الفنون سرٌّ من اسرار الكون ، والفنيون رسل الجمال تؤمن النفوس برسالاتهم أو هى كالعبير يعطر الاجواء ويتمشى فى ذرات الهواء . ولا يجرؤ انسان مهما علت منزلته فى الادب أن ينكر ما كان ويكون لشوقى من أثر فى الشعر العربى الحديث ومنزلة فى عالم الادب حتى كاد يكون ذلك اجماعاً . أما ما يلصقون به من عيوب وما يرمون به خياله من نقص فذلك مما لا يخلو منه انسان مهما سمت عبقريته أو خلصت نفسه أو صفا خياله ، وكثيراً ما تكون هذه الآراء ناشئة من اختلاف الناس فى تذوق المعانى وتفاوتهم فى معرفة أوجه الافتنان .

لقد تخطى شوقى أدواراً فى حياته الفنية فكان يرد فى أول أمره موارد القدماء فامتلأت نفسه بصور من شعر فطاحل الشعراء الاقدمين كأبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم ممن أتى من بعدهم فتبعهم فى أساليبهم وألفاظهم ومعانيهم وأخيلتهم ، وما مدحه للخديوى توفيق ونجله عباس الا ضرب من المحاولة فى محاكاة هؤلاء الشعراء وهو ظاهر فى أسلوبه الغزلى . ألا ترى هذا فى مدح الخديوى وهو يهنئه بقدومه من الاسكندرية :

نصبن لنا فى مسرح الحدق الهدبا ... وجاذبننا الالباب يأخذنها غصبا !
لواهى بالسفح الحدرن الى الضحى ... شموساً وودّعن الأصيل به سربا
وغادرننا لا ألسن غير أعين ... تسائل عن أمر الخفىّ الذى دبّا

الى آخر هذا الكلام الذى ترى ديباجته وقد طال عليها القدم . وقد تقيد فى هذا النوع بأخيلة القدماء من ذكر الوشاة والعيون وأثرها وغير ذلك مما هو معروف من أوله فقال :

ان الوشاة وإن لم أحصهم عدداً ... تعلموا الكيد من عينيك والفندا !
لا أخلف الله ظنى فى نواظرهم ... ماذا رأت بىّ مما يبعث الحسدا ؟!
لولا احتراسىّ من عينيك قلت ألا ... فانظر بعينيك هل أبقيت لى جلدا ؟!

وهكذا كان أسلوبه فى بدء قصائد المدح بالغزل ، وله فى ذلك بدائع على نحو ماهو معروف عند القدماء من المبالغة فى الاوصاف ونسبتها الى الممدوح ، وقد دفعته الحوادث فتخطى هذا الدور الى أدوار أخرى لا يسعنا الآن ذكرها جميعاً .

ولكنه منذ نشأته وهو يميل الى الابتكار والابداع فى أسلوبه وخيالة حتى لقد تقرأ فى كلامه معنى غيره فيخيل اليك أنه معنى مبتكر لم يسبق اليه . ذلك لان الشاعر الفنى كالمصور الماهر يرسم مناظر الطبيعة كما يرسمها سواه ولكنك ترى براعته تدل عليه وأسلوبه يعبر عن افتنانه وما فى نفسه من أسرار الفن وتمكن الجمال منه كما تجد المصور يرسم ما رسمه غيره ولكنه يؤلف بين اللون واللون ويبرز ما بينهما من التناسق والمشاكلة فيخيل اليك أنه شىء جديد . وهل الفن الا هذا السر الذى بثه الله فى نفوس الفنانين فيبرز كل منهم ما فى نفسه وما علق بها من ادراك وما قدر عليه من تنسيق ؟ والعجيب فى شعر شوقى أنه يمدح رجلا واحداً نحو ربع قرن بكلام كثير وقصائد طويلة ولا يكاد يشعر القارىء بالملل من قراءة هذه المعانى المتشابهة ولا بابتذال او تكرار ! واذا كبا قلمه أو ضنّ عليه خياله بشىء جديد ستر ذلك بافتنانه حتى لقد يدفع القارىء نفسه دفعاً لتذوق كلامه على الرغم مما فيه أحياناً من غموض وابتذال ! وكثيراً ما يكون ذلك فى غزله الصناعى الذى يبدأ به قصائد مدحه ومع ذلك ففى غزله الخالص صبغة خاصة به ورقة وجزالة ، فتجد وأنت تقرؤه كأنّ عاشقاً تقطعت به الاسباب فأخذ يشكو ويئن من بلواه فيقول :

علموه كيف يجفو فجفا ظالم لا قيت منه ما كفى
مسرفٌ فى هجره ما ينتهى ! أترانى علموه السرفا ؟!
جعلوا ذنبى لديه سهرى ليت بدرى إذ درى الذنب عفا!

أما ابتكار شوقى فأظهر ما يكون فى شعره عن أسرته وأولاده وتفننه فى رسم ما كان حوله وما يجول بنفسه من شعور وحب وحنان ، وهو حادث جديد فى الشعر العربى الحديث واشبه ما يكون بشعر ابن عباد الاندلسى . وأصدق ما يكون فى الدلالة على نفس شوقى من حيث صلته باسرته وحبه أهله بل هو صورة من صور أسلوبه الفنى فى رسم الحوادث المنزلية وتصوير جزء من حياته بألوانه الحقيقية بأسلوب خلاب جميل (بسيط) غير متكلف يرسم عطف الوالد ودلال الاولاد ثم حب هؤلاء لهم ، لا بكلمات عامة جوفاء بل بسرد الحوادث ورسمها ، فاذا قرأتها فكأنك ترى الطفل يحبو أمامك ويدل على أبيه فيضحك لضحكه ويبكى لبكائه . أرأيته كيف يخاطب ابنته وهو فى موقف الرجاء وكأنها أكبر أمنية له ؟ ألا تسمع صوته يتهدج وعبراته تكاد تسيل حناناً على ابنته ؟ اسمعه يقول :

وأسأل ان تسلمي لى السنين وان ترزق العقل والعافيه
وان تقسمى لأبرِّ الرجال وان تلدى الانفسَ العاليه
ولكن سألتك بالوالدين وناشدتك اللعب الغاليه
أتدرين ما مرَّ من حادث وما كان فى السنة الماضيه
وكم بُلتُ فى حلل من حرير وكم قد كسرت من الآنيه
وكم قد خلتُ من أبيك الجيوب وليست جيوبك بالخاليه
وكم قد مرضت فأسقمته وقمت فكنت له شافيه
ويضحك إن جئته تضحكين ويبكى إذا جئته باكيه ؟!

وكل ما قاله فى أولاده بديع جميل يدل على انتحائه فى الشعر ناحية واحدة لم يأخذ فيها شيئاً عن غيره ، وعلى أنه يميل الى رسم النفوس والحوادث وينظر نظراً صادقاً فيما حوله .

ومما يمتاز به شعر شوقى مابه من ثقافة جدية تظهر فى كل نواحى كلامه ، ولكن شوقي فى آخر أيامه كان أعظم ما يكون شاعراً وأبدع ما يكون مبتكراً بما أخرجه من آيات الشعر العربى فى قصصه التمثيلية . فهذا النوع جديد بحسب شوقى من أئمته ومن مبتكرى أساليبه مهما قيل فى ذلك ، وما كان لأحد أن ينكر قدرته وافتنانه ومحاكاته أساليب كورنى وراسين رغم كل نقص فنى فى هذه القصص .

ألا ترجع معى أيها القارئ الى أوائل شعره فأذكرك بنظم القصص على ألسن البهائم والطيور ، ولعل ذلك هو البذرة الأولى فى ميله الى نظم الشعر القصصى ؟ وقد ظهر فى هذا النوع ضربٌ من السهولة فى النظم ربما لا تُرضى أهل الأدب المغرمين بالصناعة والرصانة .

ولقد كانت تتقاذف شوقى الحوادث التى يمر بها فتزيد من الهاماته وخياله الشعرى لأن نفسه كانت حائرة مضطربة طلقة كنفوس جميع الفنيين، يريد أن يستمد الوحى والالهام من كل شىء يحيط به. لذلك كانت حوادث مصر الأخيرة منذ الحرب العالمية الى اليوم منبعاً من منابع شعره ، وكان هذا الاختلاف السياسى والتقلبات الاجتماعية من دواعى توليد المعانى فى نفسه .

وماذا نقول فى شوقى وشعره وما فيه من أمثال سائرة وحكم غالية ؟ لا نريد أن ننقد شعره الآن،ولا أن نذكر كل ما له وعليه ، فلنا جولة أخرى إن شاء الله ؟

احمد ضيف

شوقي منحة أجيال

اذا مُنح الأنسان موهبة الشعر ونزل عليه إلهام الخيال ونال حظاً من الأدب وفقهاً فى اللغة واستعمل تلك الموهبة واستغل ذاك الخيال واستعان بحظه فى الأدب وانتفع بمعارفه فى اللغة وكان ذا ذوق سليم وشعور حى فياض واشتغل مع كل هذه المؤهلات العقلية الفنية بقرض الشعر وراض نفسه على المرانة فيه فانه ينتج شعراً طلياً جذاباً يأخذ بالقلوب ويملك المشاعر بما فيه من شاعرية راقية وخيال سام وجودة فى الأسلوب وملاحة فى التعبير ، وربما عُدَّ صاحب هذا الشعر اذا بلغ فيه المنزلة السامية من الفحول ووصل به الى الانخراط فى سلك الطبقة الأولى من طبقات الشعراء .

ويوجد من نوع هذا الشاعر كثير من الشعراء ، ولا يخلو عصر أوجيل من وجود العدد الوافر من هذا النوع . وما أكثر شعراء العربية الآن فى جميع بلاد العرب الذين تتوافر فيهم هذه الصفات ويمتاز بعضهم على بعض فى نواحى هذه النعوت

وليس من الضرورى لهذا النوع من الشعراء حتى المبرزين منهم النبوغ فى العلم وسعة الاطلاع فى المعارف والخبرة العميقة فى التاريخ والوقوف على دقائق الظواهر الاجتماعية ومسائل المجتمع الانسانى والاشراف على ألغاز الطبيعة وأسرار الوجود العام ، فكثيراً ما نجد من الشعراء الممتازين بموهبة الشعر وطلاوة النظم من لم يزد تعليمه وتهذيبه المدرسى على الدراسة الابتدائية . ومَن كان هذا شأنه فلا ننتظر من شعره الطلى العبقرى أكثر من الخيال المجرد من الأحكام العلمية والنظريات الفلسفية والظواهر الدقيقة الاجتماعية وان اشتمل على نوع من الحكمة المعروفة فى شعر المتنبي وتجرد عن الفلسفة المأثورة فى شعر ابى العلاء ، والأولى ترمى الى المعنى السامى الاجتماعى فى التركيب البديع والثانية قصد بها أبو العلاء الى الفلسفة الفنية الاصطلاحية ومذاهب الفلاسفة ، والأولى تأتى الهاماً والثانية تعليماً ولا يتعاطاها الا العلماء الفلاسفة المثقفون .

اذا اجتاز الشاعر دور الدراسة الابتدائيه والتربية المدرسية الأولى وانقطع عن هذا العمل الى غيره وأربى على سنى التعليم فليس فى وسعه ولا فى طبيعته أن يستأنف بنفسه التثقف فى العلوم والفنون والحكمة ، وليس من السهل له أن يقف

على روح التاريخ مهما قرأ فى التاريخ ولاأن يفهم سلسلة المجهود العقلى الانسانى حلقة بعد حلقة مع اتصال الحلقات وإحكام الارتباط .

لهذا لاننتظر من شعر امثال هؤلاء الشعراء سوى الشاعرية الرائعة الخلابة فى الأسلوب العذب الجذاب لنتفكه بقراءته ونطرب لسماعه غير منتظرين بعد الفن اللفظى الممتع والابداع القوى فيه شيئاً من الفنون الجميلة ، أو نوعاً من العلوم القديمة والحديثة ، أو لوناً من الثقافة العقلية العامة ، أو نحواً من الحكمة الاصطلاحية الفنية فى مذاهبها المختلفة التى تفسر الوجود الكلى من حيث المبدأ والتغيير والمصير .

* * *

فوق هذا النوع من الشعراء وعلى هامة الأدب الراقى يوجد نوع آخر من طراز خاص ممتاز . وهذا النوع السامى الممتاز من الشعراء هو الذى تتوافر فيه — على وجه كامل — الصفات والنعوت والمؤهلات التى يكوّن كلها أو جلها النوع الأول الطبيعى المألوف من الشعراء ويمتاز مع ما تقدم بتربية علمية عالية وتهذيب عقلى كامل واسع يستجمع بهما فى ذهنه مع موهبة الشعر وسمو الخيال ثقافة جامعة شاملة تجعل صاحبها يشرف على اسرار الوجود الكلى وألغاز الكون العام ويفقه علوم الانشاء وروح تاريخه العام وتاريخ مجهوداته العقلية من بدء العصور الأولى حتى الآن .

هذه الثقافة الواسعة العالية هى بالطبع الينبوع السامى الجدّى الذى يغترف منه الشاعر الممتاز والامام الجليل فيجتمع له فى شعره بذلك وبسمو الخيال وطلاوة النظم وبموهبة الشعر الابداع اللفظى والمعنى الرائع الجذاب والحكم العلمى الفنى الصحيح بما يشتمل عليه شعره من علم وفن وحكمة سامية وفلسفة فنية عالية وعبرة من التاريخ الانسانى وعظة من روحه الحاكمة فيه .

ومثل هذا النوع نادر الوجود ، وعلى الاخص فى الأمم التى لم تستكمل بعد ثقافتها ولم تصل فى رقيها العلمى الا الى حد محدود ليس شائعاً فى الغالب فى كل الافراد بل فى بعضهم ، وقليل ما هم .

واذاً نحن الآن فى نهضتنا العلمية لم نصل معها الا الى حالة لو قارناها بمثلها فى الرقى العلمى الأوربى لوجدناها فى درجة النهضة التى كانت عليها أوربا فى عهد الرينانسنس أو احياء العلوم .

وينتج من هذا أننا لسنا فى دور ننتظر فيه من كل شعرائنا أن يكونوا — مع تمتعهم بمواهب الشعر وقوة الخيال إلى آخر ما أوردناه عند الكلام على النوع الاول من الشعراء — بالغين حدود الثقافة العامة الجامعة ، لأن هذا ليس فى طبيعة جيلنا الحاضر بالنسبة الى الشرق بل يحدث فى جملة أجيال آتية يمكن حصرها اذا قيس نهوضنا بنهوض أوربا ، وعلمنا أننا لا نصل الى ما وصلت اليه هذه القارة الآن الا بعد أجيال بعدد الاجيال التى بين عهد الرناسنس والعهد الحاضر .

* * *

اذا تقرر ذلك فلانكون مغالين اذا قلنا بأن شوقى أمير الشعراء منحة أجيال أعنى الأجيال الغابرة منذ عهد امرىء القيس إلى الآن وأجيال آتية لا ندرى عدّها وإن قدرناها بعدد الأجيال التى بين عهد الرناسنس فى أوربا والوقت الحاضر .

أجل ، شوقى أمير الشعراء منحة أجيال غابرة وآتية لأنه جمع بين اسمى موهبة للشعر وأرقى خيال فيه وبين الثقافة العامة الجامعة الحديثة التى امتاز بها من بين شعراء العربية فى الماضى والحاضر . وانى لنا بمثله تجتمع فيه كل هاتيك الخلال ؟ ان هذا لعمرى لا يوجد ولا يتحقق إلا على غير سنن طبيعى وفى استثناء غير اعتيادى . ومتى يسمح الدهر بغير سنته ويظهر باستثناء فى نواحيه ؟ ربما حدث هذا فى جيلنا الحاضر أو بعد أجيال .

* * *

لست فى حاجة الى ايراد أمثلة من شعر شوقى ونثره الحكيم للدلالة على أنه وهو المفرد العلم فى الذروة وفوق الهامة بالنسبة الى موهبة الشعر فيه وفى أعلى مكانة من التفوق ، كما أننى لست فى حاجة أيضاً إلى أن أسوق نبذاً من انتاجه الشعرى والنثرى مستدلا بها على مدى تهذيبه العالى وثقافته العامة السامية ، فشعر شوقى كله عذب وكله رائع ونثره كله بديع وكله حكيم مع امتلائهما بالعلم والفن والفلسفة والتاريخ والارشاد والهداية والأحكام الصادقة والعظة والاعتبار . ولا يفقه شوقى ويبلغ مدى مايرمى اليه شعره ونثره الا مثقف ثقافة شوقي : فهو على سهولته وعذوبة اسلوبه كنز مكنون وسر محجوب سترفع حجبه البحوث العلمية العميقة المتوالية لأرباب العقول الراجحة والمعارف الواسعة على توالى الأيام والدهور .

نعم لسنا فى حاجة الى أن نتعرض هنا لشعر شوقي ونثره للدلالة على مكانة موهبته الشعرية وثقافته العامة السامية ، ولكنى استأنس بأثرين جليلين من آثاره العظيمة وتراثه

الاول الخالد أحدهما يرجع الى شاعريته والثانى الى ثقافته، والى القارىء البيان بالاجمال:

نفح شوقى اللغة العربية وأدبها والخيال العربى ومكانته فى فن الشعر التمثيلى التى خلت منه الآداب العربية الى عهد قريب درأ ثمينة وغرراً وسيمة هى رواياته: كليوبترة ومجنون ليلى وقمبيز وعلى بك أودولة المماليك وعنترة، فبرهن بهذه الروايات الأدبية على سمو الخيال العربى الذى رماه بعض النقاد بتخلفه عن مكانة الخيال الآرى لعدم انتاجه فن الشعر التمثيلى الموجود فى آداب الآريين.

وكتاب «أسواق الذهب» فى نثر شوقى الحكيم يحتوى على كلمة غالية فى وصف البحر الابيض المتوسط - الأرجوحة الأولى للعقل البشرى ومهد المدنية الانسانية ونقطة اتصالها من أول وجودها حتى الآن ومستقرها الطبيعى فى المستقبل مادامت القارات قارات والبحار بحاراً.

هذه الكلمة الحكيمة الغالية اذا أنت قرأتها ونفذ فهمك الى أغراضها وألمت بما فيها من حكمة وبيان وعلم وعرفان أدركت مقدار ثقافة شوقى وعلمه الجم واطلاعه الواسع وحكمت معى بأنه منحة أجيال ونعمة دهور.

قال شوقى: البحر الأبيض المتوسط سيد الماء، وملك الدأماء، مهد العلية القدماء، درجت الحكمة من لجه، وخرجت العبقرية من ثبجه، ونشأت بنات الشعر فى جزره وخلجه. بدت الحقيقة للوجود من يبسه ومائه، وجرب ناهض الخيال جناحيه بين أرضه وسمائه!

العلوم نزلت مهودها من ثراه، والفنون رَبيت فى جمال رباه، والفلسفة فى ظله وذراه، (بنتاؤر) وُلد على عِبرِه، و(هومير) مُمهِّد بين سحره ونحره، ونحت الاليادة من صخره، و(هيرودوت) دون متونه على ظهره، و(الأسكندر) تهى اليه بفتحه ونصره!

ثم قال بعد وصف ساحر خلاب على نمط ماسقناه مخاطباً ناشىء الكنانة:

لآئك عنده - منذ ماجت أمواجه ولجت لجاجه، وهدر عجاجه، وانثنى للرياح شراعه وساجه - جوار الأكرمين، وصحبة المحسنين، وكنف السماح الخيرين. تلك اللجة - أيها الناشىء - هى من أوطانك عنوان الكتاب، ومصراع الباب، ووجه الخميلة، وظاهر المدينة، وعورة الحصن، وان قوماً لهم على البحر ملك وليس

لهم منه فلك ، لقوم دولتهم واهية السلك ، وسلطانهم وإن طال المدى الى هلك .

فلله أنت يامنحة الاجيال ونفحة الدهور ! ذكراك خالدة فى النفوس وتراثك على الدوام فخر الادب وتاجه ؟

على المنانى

◆◆◆◆◆

شوقى وحافظ

ليس لنا ولحن نكتب عن شوقى وحافظ الآن ، إلا أن نودّع الشاعرين الكبيرين بكلمة طيبة رضيّة ، نستخلصها من جانب القلب لتكون إكليل عطف ورحمة على قبر الفقيدين .

فقد كانا أول من قرأتُ له من شعراء العربية وحفظت من شعره ، وكانا أول من شجعنى وأنا ناشىء على المضى فى رحلتى الأدبية بقدم ثابتة بما قلدانى من شعرهما الرقيق ، فحقّ علىّ أن أوفيهما حقهما عندى وقد نزحا الى دار الخلود .

شوقى وحافظ اسمان تغنت بهما الألسنة جيلا من الزمن ، وردد شعرهما كل ناشىء فى عالم الأدب فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، فهما من الشعر كعتبتى الدار .

جاء شوقى وحافظ فى عهد نهضة أدبية جديدة ، فكانا لجمين متألقين فى سمائها . ففى نظمهما كانت تتجدد لغة العرب بعد أن رثت حبالها فى يد الزمن ، وكان هم الأدب فى عصرهما أن تستعيد اللغة العربية جمالها ، ويبعث الشعر القديم من مرقده ، فرأى فيهما ضالته المنشودة وإن كانا لم ينفردا بهذا الفضل ، فالبارودى وصبرى والبكرى لم يقصر شأوهم فى ذلك عن شاعرينا الفقيدين .

لم يَسُمْ نظر الجيل الماضى عن هذا الحد ، ولم يتطلع شعراؤه إلى أكثر من تلك الناحية التى ترمى الى ترسم خطى المتقدمين من شعراء الدولة العباسية وصدر الاسلام ، ولم يطالبهم أحد بأكثر من ذلك ! فجميع المشتغلين بالحركة الأدبية فى ذلك العهد كانوا يتذوقون بذوق العصور الماضية .

على أن شوقى وحافظ وإن اتفقا فى هذا المذهب ، فقد كانا يختلفان من بعض الوجوه فيما ينظمان . يرجع ذلك الى البيئة التى نشأ فيها كل من الشاعرين ، فترى فى

﴿ شوقى وحافـظ ﴾

صورة تذكارية أخذت على مسرح الأوپرا بالقاهرة
فى مهرجان تكريم شوقى بك سنة ١٩٢٧ م.

﴿ من أعيان الشعر فى مهرجان شوقى بك ﴾

يرى الى يساره خليل مطران بك فالشيخ محمد عبدالمطلب

والى يمينه حافظ ابراهيم بك فشبلى الملاط بك

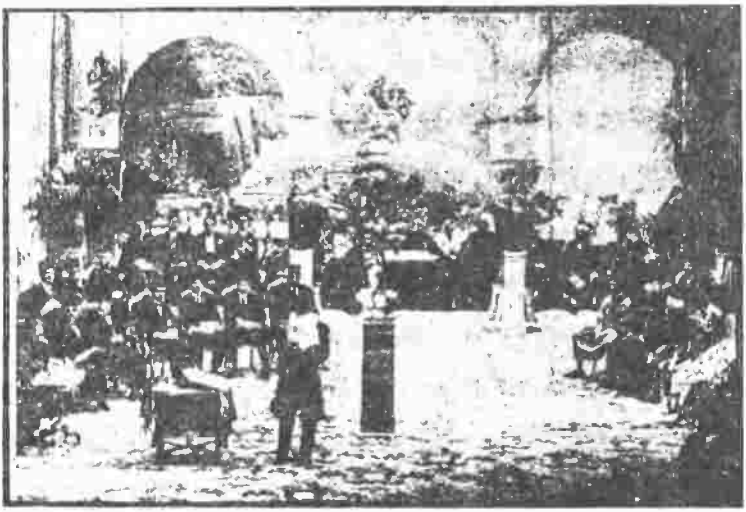

﴿ فى مهرجان شوقى بك سنة ١٩٢٧ ﴾

على مسرح الاوبرا بالقاهرة

شعر شوقي أثر النشأة الأرستقراطيه ، فهو ربيب الحكم وخدين الحكام ، لم يحوله الزمن عن طبيعته ، ولم تخرجه تطورات الاحوال عن فطرته . أما حافظ فهو ابن الشعب وربيب المجتمع ، في كنفه نشأ وبين أحضانه عاش ، فكان يتغنى بأفراحه لأنه يشاطره إياها ، ويهتف بأشجانه لأنه ممن يكتوون بلهيبها .

فظهرت في شعر الأول روعة وسطوة ، وفي شعر الثاني حرارة ولوعة ، وكلا الشاعرين مخلص لطبعه صادق لفطرته .

وقد عاش الشاعران حتى رأيا النهضة الحديثة يندفع سيلها فيجترف في طريقه كلّ قديم ، وشاهدا من رجالها شعراء ونُقاداً جديدين ، مبشرين ومنذرين ، فتوالت عليهما حملات النقد ، واشتدت عليها اقلام الكتاب ، حتى صارا هدفاً لكل ناقد . وهما الشاعران اللذان تنزّها في عرف الجيل الماضي عن كل نقد ، واعتصما عن كل عيب ، وتلقّى ذلك الجيل رسالتيهما بصدر رحيب .

عانى شوقي وحافظ تلك الحملة العنيفة واصطليا نيرانها ، فكان حافظ يرى من السلام ان يقف عند حدوده ، وأن يطأطىء رأسه للزوبعة ، حتى لا يصاب منها بعائب أو يتقرب من رجالها بما عهد فيه من البشاشة واللطف فيبعدهم عنه ، ولكنه مع ذلك كان يشهد بصدق تلك الحركة ويعترف بأن للتطور سبيله في كل شيء .

ولكن شوقي الذي خُلعت عليه إمارة الشعر وأجلس على عرشه ، لم يكن من السهل عليه أن يتلقى تلك الحملة فكان يغضبه كل نقد ويزعجه كل ناقد ، فجرد جيشاً من الكتاب للذود عن شعره ، وآخر لمحاربة خصومه والسهر على حراسة عرشه . ولو علم رحمه الله لترك الامور تجري في مجراها ، وترك شعره للحياة ، يأخذ حظه منها كما تُقدر له . وحسب الشاعرين أنهما تبوّآ زعامة الشعر حيناً من الزمن لم يكن ينازعهما فيها منازع ، وحسب الادب انه وجد في شعرهما قنطرة بين القديم والحديث ؟

محمد طاهر الجبلاوي

شوقى فى الأندلس

— ١ —

أما وقد صار شوقي فى ذمة التاريخ ـ تاركاً آثاره الأدبية يقول فيها التاريخ كلمته النزيهة التى لا تعرف الخداع ولا المجاملة ، ولا تفهم هذا الاثر المشهور «اذكروا محاسن موتاكم» هذا الفهم اللفظى السطحى الذى لايلائم البحث العلمى ولا يناسب النقد الأدبى — فمن الحق علينا أن نقف من هـذه الآثار موقف المؤرخ الذى يحاول الانصاف ولا يعنى بغير الحق والامانة لعله ينصف هذا الشاعر الجليل الذى لايستطيع الآن دفاعاً عن نفسه إلا بتلك الآثار نفسها ، كما أن هذه الآثار مجال عزته واعتزازه ومن أجلها ذكره الناس فى حياته وهم يذكرونه بعـد مماته ، وبقدر ما فيها من أسباب الجمال والقوة والخلود يبقى شوقى مذكوراً .

نحن لا نعرف شوقى مثلما نعرف آثاره ، بل لانعرف شوقى الا بآثاره الأدبيه فهى تراثه الذى ينبىء عن جهوده الحيوية ، ويصور أفكاره وعواطفه ، ويعرض علينا شخصيته مهما يكن لونها الأدبى والخلقى ، ولذلك نبادر فنسجل هنا أن هذه الشخصية ستبقى مجهولة أو على الأقل غامضة بعض الغموض حتى تتقدم الايام وتسمح الأحوال بأن يطبع شعر شوقي كله ويذاع ما لم يذع منه ومعه تاريخه وملابساته التى تعين فى فهم الشعر من ناحية ، وفى إنصـاف شوقى من ناحية أخرى ، وأما تلك الأحكام التى تصدر على هـذا الشاعر الجليل منذ الآن فهى فيما أرى تقريبية أو ناقصـة .

أقول هـذا لأنى أذكر وأكثر الناس يذكرون معى أن النقد الأدبى ليس نوعاً من المجاملة الانسانية يقوم على المديح والثناء والإشادة الفارغة بالآثار الأدبية وأصحابها ، كما يذكرون أيضاً أن ليس النقد فناً هجائياً أساسه الثلب وتتبع الاخطاء وانتحالها والوقوف من الشعراء والكتاب موقف العدو الناقم يلبس المنظار الاسود ويصدر عن شعور حاقد كلما حاول قراءة الأدب أو دراسته ، ولا ذنب على الأدب فى ذلك ، وإنما الذنب ذنب الكاتب أو الناقد أو ذنب ما بينهما من صـلة العداوة والبغضاء .

ولكن النقد الأدبي فى أصح مذاهبه مسألة استعراض الآثار الأدبية وبيان ما فيها من المحاسن والمساوىء الفنية ، ثم رد هذه الخواص إلى أسبابها المعقولة وعللها الواضحة . نعم ، إن كلا من التاريخ العام والخاص يعين فى فهم هذه الآثار ويلقى عليها ضوءاً يبين لونها السياسى والاجتماعى ووجهة صاحبها حين قال ، ولكن شيئاً هاماً يسمو على التاريخ ويكاد ينفصل عنه ، هو نظرات الكاتب الثاقبة وطريقة تصويره ، نظرته العميقة التى تستمد الأفكار والعواطف من الطبيعة الانسانية الخالدة التى لاتكاد تغيرها الدهور وإن غيرت من صورها ، ثم هذا الاسلوب الفنى الذى هو مثال الشخصية الممتازة التى ينفرد بها الأديب والتى هى هو وكفى .

وأول ماعن لى ـ فى الكتابة عن شوقى الشاعر بمناسبة هذه الذكرى السريعة ـ أن اختار قصيدة من روائعه وأتبين فيها شخصيته الأدبية ، وكنت آثرت قصيدة أبى الهول لاعتقادى أنها من آثاره الممتازة ، ولكن عدلت عن ذلك بعد حين رغبة منى فى توسيع أفق البحث وحرصاً على أن أرى هذا الشاعر حيث بدأت شاعريته الخالصة تقوى وتنمو ، وحيث وصلت إلى مستواها السامى الذى لم تكد تتجاوزه وتعلو عليه فيما بعد ذلك إلاقليلا . وقد خيل إلى انى أستطيع رؤيته على هذه الصورة بالأندلس فى منفاه . على أنه ـ فيما يظهر لى ـ يصعب الظفر بشخصية شوقى الأدبية فى قصيدة واحدة أو فى بعض قصائد لاختلاف أطواره الحيوية والفنية كما سنرى .

— ٢ —

نشأ شوقى الشاعر فى ظل اسماعيل وولد ببابه ، وحباه هذا البيت الكريم برعايته ناشئاً حتى شب وترعرع . فمن الحق على شوقى أن تكون باكورة شعره عرفان هذا الجميل وتسجيله ، وهذا هو أساس اتجاه شوقى ونزعته ليكون شاعر القصر ولسان اسماعيل وآله . وقد كان ذلك كله ، فصار شوقى فى هذا الدور الاول من حياته يعبر بشعره عن اتجاه القصر وتقاليده أكثر مما يعبر عن نفسه وشخصيته . فلبس لذلك هذا الثوب الرسمى الذى تنسجه مقتضيات الملك ونزعاته ودواعى البيئة الحاكمة . هذا من الناحية الموضوعية وأما الناحية الفنية فقد كانت تقليداً ومعارضة للشعر القديم يذهب شوقى فى نظمه مذهب شعراء الملوك ، والخلفاء فى بغداد على الخصوص ، ولا بأس على شوقى من ذلك فى أوليات عهده بالشعر ، فالفنى يبدأ حياته دائماً بالتقليد وتأثر النابهين من السلف . ولكن الخطأ العظيم هو الفناء فى هؤلاء

السابقين والسير على مناهجهم دون الدلالة على مذهب فنى خاص أو ابتكار أسلوب يلائم قانون الرقى وتغير البيئات .

شوقي ، إذاً ، شاعر القصر . والقصر كان يومئذ متصلاً بالخلافة الاسلامية التى تشرف على أقطار شتى . فليس غريباً أن ترى الشاعر يذكر حكومة مصر وجمالها ومكانة الخلافة وجلال الآستانة ، ثم يذكر الاسلام والمسلمين ، ويتجه بنظره الى طبيعة الحكومات ومزاجها والى تقاليد القصور ورجالها دون النظر إلى طبيعة مصر ومزاج المصريين . فكان يستوحى الحكومات وأفرادها ، وقلما كان يستوحى هذا الشعب المصرى أو الاسلامى ، بل قلما عُنى بما تعرضه عليه طبيعة بلاده إلا عرضاً أو قليلا . وهكذا بقى شوقى مطمئناً إلى هذه المكانة التى وضعته فى صف المقربين إلى السماء وباعدت مابين وبينه الارض حتى حالت الاحوال وذهب إلى منفاه .

ولما عاد من الاندلس صادف بمصر نهضة ثائرة تريد حياة جديدة فى كل شىء فى السياسة والتعليم والاجتماع والاقتصاد ، وصادف مذاهب سياسية تمثل هذه النهضة فحاول مسايرة ذلك بشعره ليكون السجل الخالد لهذا التاريخ الحديث . فشوقى يتجه فى كثير من المناسبات إلى عرش البلاد يعرف له آثاره الجليلة ، ثم يثنى إلى رجالات مصر فيسلكهم بين الابطال الفاتحين . ويتردد بين الاحزاب السياسية متغنياً بمناهجها دون أن يفرغ لاحداها ويقف عنده ودون أن يكون له هو مذهبه الخاص يقيم عليه رسالة أو يستمد وحياً والهاماً . هكذا كان شأنه مع المعاهد العلمية والنوادى الاجتماعية ، فشوقى فى الفترة الاولى شاعر القصر وهو فى الفترة الثانية شاعر الحكومة مع شىء غير قليل من الشاعرية الاجتماعية والفنية والتاريخية .

لم يفرغ شوقى لنفسه ولفنه فى هذين العهدين السالفين . ولم يسلم شعره من المجاملات السياسية والاجتماعية ، بل ومن الصنعة الفنية التقليدية ، فكانت آثاره مزيجاً من ألوان شتى قلما تأتلف أو تكون شخصية محدودة واضحة المعالم ، فلا تركه هنا وهناك ولا بحث لعلى أظفر بشوقى شاعر العاطفة والعبرة وإذا ظفرت بشعر العاطفة والعبرة فقد ظفرت بما أريد .

قلنا إن شوقى كان شاعر القصر أول أمره ، وكان وثيق الصلة بسمو الخديو عباس الثانى ، ولما قضت الأحوال أن يغادر الخديو مصر وأن يتبوأ المرحوم صاحب العظمة السلطان حسين كامل عرش هذه الديار وقف شوقى مرتاعاً لهذه الحوادث

التى توالت عليه وأمامه فحالت بينه وبين سيده أو صديقه الأول وسلبته مكانته السامية ، وأورثته الحزن والأسى ، وعرضت عليه معجزات القضاء والقدر ، حتى ثارت فى نفسه عاطفة الحزن وتنبه الى الحياة وصروفها وما فيها من دواعى العظة والعبرة ، وابتدأ شوقى يستمد شعوره من نفسه هو لا من نواح تقليدية كانت تستلزمها حياته الأولى ، وهنا ظهر شوقى الشاعر : فارق سيده أو صديقه ، وهو مضطر أن ينى له فلا ينساه سراعاً ، ولكنه يجد سلطاناً جليلاً هو عم الخديو عباس يجلس على العرش ، وهذا نوع من العزاء عنده ما دام الملك فى بيت اسماعيل ويجد الانجليز يعرفون لهذا السلطان جلاله ، ويعرفون لبيت اسماعيل مكانته ، فهو مضطر إذاً أن يتئد ويحفظ التوازن بين هذه النواحى ولكنه توازن الحذر الحزين وكفى ، وهذا الحزن هو الطابع الواضح لشعر شوقى من ذلك الحين حتى نفى وعاد ، وبقيت آثاره عنده حتى مات رحمه الله .

هذا الحزن لم يكن ثورة عنيفة ، وإنما هو حزن تصحبه وتهدئه العبرة والحيطة ، وهو كذلك حزن مقسم بين ناحيتين أو نواح ثلاثة : فشوقى حزين على نفسه وتطور حياته إلى هذه الحال ، وهو حزين على صديقه أو سيده الذى غادر الديار ، وهو حزين اخر الأمر على مصر . ومهما يكن هذا الحزن قوياً فى الاتجاه الشخصى فهو حزن جميل أوحى إلى الشاعر نغمة فنية جميلة تسمعها فى قصيدته (حسين كامل) التى قالها لما ولى العرش وهى قصيدة تتلخص كما قلت لك فى هذا الحزن يصحبه الحذر والاعتبار :

الملكُ فيكم آل إسماعيلا ... لا زال بيتكمُ يظلّ النيلا
لطف القضاء فلم يُمل لوليّكم ... ركناً ، ولم يشف الحسود غليلا
هذه أصولكمُ وتلك فروعكم ... جاء الصميم من الصميم بديلا
الملك بين قصوركم فى داره ... مَنْ ذا يريد عن الديار رحيلا
(عابدين) شُرّف بابن رافع ركنه ... عزّاً على النجم الرفيع وطولا
ما دام مغناكم فليس بسائل ... أحوى فروعاً أم أقل أصولا

شوقى يصور ناحية العزاء والسلوى ، ويضمر فى نفسه لوعة وحزنا ، ويحاول الثبات أمام القضاء والقدر صابرا راضيا ، ولكن شعره كما ترى ينم عن نفس شاعرة مرتاعة

مضطربة استطاعت أن تبدو فى هذا الأسلوب الذى لم يتحلل بعد من محفوظات الشباب ومعارضة العبارات القديمة والذى نودُّ لو كان أطبع صوغاً وأكمل اتساقاً ولكنه مع ذلك مرض مقبول . ثم يستمر شوقى فيذكر رجال هذا البيت المجيد وما آثروه فى نشر الحضارة بوادى النيل مولياً وجهه شطر الماضى يتناسى أو يدارى ما هو فيه لعله يجد منفذاً من هذا الحرج الشديد حتى يصل الى الانجليز وعرفانهم كرامة البيت المالك وتداركهم الأمر :

حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفا وميولا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً فى البلاد عُدولا
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها مَلِكاً عليها صالحاً مأمولا

ولكن الشاعر يلمس معجزة القدر ويرى النحس عابثاً بالعروش والممالك ووجه البسيطة يلبس جلد الحرباء ، فيثوب ويصطنع هذا العزاء :

سبحان مَنْ لا عزَّ إلا عزُّه يبقى ولم يك ملكه ليزولا
لا تستطيع النفسُ فى ملكوته إلا رضًى بقضائه وقبولا

ومهما يقل الشراح إنه يشير إلى ما ألم بتركيا أو بمصر فليس من شك عندى أنه يستمد من نفسه هو هذه العبرة والرضوخ للقضاء ، ثم يحاول أن ينقلب إليها مسلياً ، ثم يستمر فيذكر وفاءه ويغمسه فى ذكرى الحروب وآثارها المنحوسة . أليست الحروب سبب هذا البلاء الذى أصابه وغيرمن شأنه ؟ ولكنه يتنبه لنفسه وموقفه فيعود إلى إسماعيل وبنيه :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد وُلدتُ بباب اسماعيلا ؟!
ولبست نعمته ونعمة بيته فلبست جزلا وارتديت جميلا
ووجدتُ آبائى على صدق الهوى وكفى بآباء الرجال دليلا

ثم يخاطب المرحوم السلطان (حسين كامل) :

إرقأ سرير أبيك والبس تاجه وا كرُمْ على (القصر المشيد) نزيلا
مرّتْ أويقاتٌ عليه مُوحشاً كالرمس لا خُلواً ولا مأهولا

* * *

يا أكرمَ الأعمام حسبك أن ترى للعبرتين بوجنتيك مسيلا
مِن عَثرة ابن أخيك تبكى رحمة ومن الخشوع لمن حباك جزيلا
ولو استطعتَ إقالةَ لعثاره من صدمةِ الأقدارِ كنتَ مقيلا

وفى آخر هـذه القصيدة خلع شوقى شيئاً من نفسه على المصريين فدعاهم إلى التوكل والصبر على هذا البلاء فى اسلوب المتألم الذى ينتظر أحداثاً وخطوباً أخرى ولـكن ذلك كله يتركز فى هذا الشعور الذى ملك نفس الشاعر فى هذه الفترة الطارئة وهو سقوط المضطرب الحزين .

— ٣ —

ولـكن هـذه الروح التى تسود القصيدة الآنفة ، والتى تدل على اتجاه شوقى ، ثم محاولة شوقى أن يمثل دور الوفى أو المحتاط ، كل ذلك استتبع نفيه فغادر مصر الى الأندلس .

وهنا يظهر الحزن قويا صريحاً ، ولـكنه حزن على نفسه وما انتابه . وحزن على مصر وأحداثها ، وهنا كذلك يمد شوقى بصره وبصيرته الى الحاضر والماضى يستمد منهما العبر والعظات ويفيض عليها من نفسه الحزينة التى تترك ملاعب الصبا ومهد الشباب ، وترى النكبات تهجم على البلاد وتتحكم فيها النوائب ، ولا شك أن هذه تخلق فى النفس حسرة وجلالا وتحملها على التبصرة والاعتبار. تقرأ ذلك فى قصيدته المنشورة « قناة السويس » :

« تلـكما يا ابنىّ القناة ، لقومكما فيها حياة ، ذكرى اسماعيل ورياه ، وحُليا مفاخر دنياه ، دولة الشرق المرجاة . . . تعبرانها اليوم على مرجاة ، كأنها فُلـك النجاة خرجت بنا بين طوفان الحوادث ، وطغيان الـكوارث ، تُفَارق برّاً مغتصبه مُضرىُّ الغضبة ، قد أخذ الاهبة واستجمع كالأسد للوثبة . . . إن للنفى لروعة ، وإن للبين للوعة ، وقد جرت أحكام القضاء بأن نعبر هذا الماء حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وان لم ينسجم ، نفانا حكام عُجم ، أعوان العدوان والظلم ، خلفنا يفرحون بذهب اللُّجم ، ويمرحون فى أرسان يسمونها الحُـكْم » .

فقد أباح النفى للشاعر ان يسرى عن نفسه ويصرح ببغضه حكومة مصر إذ ذاك

ويرى فيها وسيلة لأغراض الاحتلال ومظاهر لارادته وسلطانه : «ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ، سامحهم فى حقوق الأفراد ، وسامحوه فى حقوق البلاد ، وما ذنب السيف إذا لم يستحى الجلاد » .

وهنا نجد الشاعر صريح النقمة ، فاضت نفسه بشعورها كما وجدت متنفساً ، ولكنه مع هذا بصير يشتق من الحوادث الآيات والعبر ، ويستنبط من التاريخ العظات والسور : « أنظرا تريا على العبرين عبرة الأيام ، حصون وخيام ، وجنود قعود وقيام ، جيش غيرنا غرسانه وقواده ، ونحن بحرانه وعلينا أزواده ، ديك على غير جداره ، خلا له الجو فصاح ، وكلب فى غير داره ، انفرد وراء الدار بالنباح» . ومن لا يذكر سلطان الانجليز وسيطرتهم على القناة والبرية أيام الحرب العظمى ... وبعد أن أفاض الشاعر فى ذكر الحوادث التاريخية التى لابست طورسيناء ختم كلمته بقوله: «ثم انظرا اليوم تريا القناة فى يد القوم إن أمنوا ركزوها ، وإن خافوا هزوها» .

لم تخل هذه القصيدة المنثورة من عاطفة الحزن ومن التأمل والتفكير ، وهى مع ذلك تمثل حال مصر فى تلك الفترة تمثيلاً قوياً واضحاً . أما هذا الأسلوب فليس فيه جديد ، ولا يروق أكثر الناس هذا السجع لأنه يحول بينهم وبين قراءته وتفهم معانيه ومافيه من تصوير وأفكار . وشوقى يعترف أنه قلد فى هذا الأسلوب الزمخشرى والأصبهانى ، وماذا عليه لو عمد الى الارسال ؟ أظن نفعه كان يكون أعم ، وربما استطاع أن يخدم الكتابة الحديثة ، ولكن شوقى حريص على الموسيقى اللفظية ورنة الأسلوب .

وهنا نلاحظ أن شوقى أعرض عن ذكر الخديوى واتجه اتجاهاً تاريخياً شخصياً وستجد ذلك واضحاً جداً فى أندلسياته .

— ٤ —

وأخيراً نجد الشاعر فى الأندلس ، وكم فى الاندلس من آثار عربية ، وكم تثير الأندلس من ذكريات تاريخية مجيدة ، فتلك الآثار تحدث عن دول كانت ملء الدهر ورجالات سلبوا عروشاً وفقدوا ملكاً كبيراً ، كان للأدب فى ظلالهم سوق رائجة وللفن فى رحابهم آيات رائعة خالدة ماتوا فخلدتهم الآثار ، ورددت أصداءهم الأحاديث والاشعار ، وهناك ظفر شوقى بعين ثرارة تفيض عزاء وسلوى ، وتملأ النفس عبرة واعتباراً ، فاتخذ من ذلك معيناً لشعر هو الشعر فى عاطفة ، جمع فيه بين الحاضر والغابر ، ووصل بين الشرق والغرب ، ولاءم بين نفسه و نفوس غيره من الشعراء .

نزل شوقي بلاد الأندلس ، وفي نفسه ذكرى مصر ماثلة وتلك الحوادث التي أقصته عنها . فاذا به يرى الحمراء ، ويذكر في أرجائها موقف البحتري من موائد كسرى بعد مقتل المتوكل ، ثم يذكر ابن عباد وابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن الداخل صقر قريش . وهكذا بقي يستخرج من الماضي صور الحاضر ويقول في ذلك الشعر معارضاً الأندلسيين وغيرهم حتى ودع الاندلس وعاد إلى مأواه .

غير هذا المكان أوسع صدراً للموازنة بين البحتري وشوقي في هذه الوقفة على آثار الماضين ، فقد يكون بينهما في الظاهر ما يدعو الى الموازنة ، وقد يُضعف هذه الموازنة ما بين الحالين من فروق جوهرية تجعل الموازنة نوعاً من السخرية والعبث ، ولكن الواقع أن شوقي وقف بقصر الحمراء وذكر سينية البحتري :

صنتُ نفس عما يدنس نفسي ... وترفعت عن جدا كل جبس

وأخذ يعارضها بقصيدته « الرحلة الى الأندلس » :

اختلافُ النهار والليل يُنسي ... اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
وصفا لي مُلاوةً من شباب ... صُوِّرت من تصورات ومَسِّ
وسلا مصر: هل سلا القلب عنها ... أو أسى جرحه الزمان المؤسِّي ؟
كلما مرت الليالي عليه ... رقّ ، والعهد في الليالي تُقسِّي
مستطارٌ إذا البواخر رنّت ... أول الليل أو عوت بعد جرس
راهبٌ في الضلوع للسفن فطنٌ ... كلما رن شاعهن بنقس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيلٌ ... ما له مُولعاً بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو ... حُ ، حلال للطير من كل جنس ؟!
وطني لو شُغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي !

ثم أخذ شوقي يصف مشاهد مصر والنيل والقاهرة وضواحيها وآثارها . وهو تصوير تشترك فيه العبرة مع الحزن حتى يقول :

يا فؤادي لكل أمر قرارٌ ... فيه يبدو وينجلي بعد لُبس
عقلتْ لجّةُ الأمور عُقولا ... كانت الحوتَ طول سبح وغَطّس
غرقت حيثُ لا يُصاح بطاف ... أو غريق ولا يصاخُ لِحسّ
فلك يكسف الشموس نهاراً ... ويسومُ البُدور ليلة وكس !

ولما فرغ من الناحية المصرية انتقل إلى حيث يقيم ، فاستعرض تاريخ العرب فى الأندلس استعراض إجلال وعظة :

أين مروان فى المشارق عرشٌ أمويٌّ وفى المغارب كرسى ؟
سقمت شمسهم فردت عليها نورَها كل ثاقب الرأى نطس
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك تبلى وتنطوى تحت رمس !
وعظ البحترى ايوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

واذا استمررت فى قراءة القصيدة ولا سيما هذا القسم التاريخى تلمس آثار البحترى وروحه واضحة بينة ، فانظر فى قول البحترى يذكر إيوان كسرى :

ليس يُدرَى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لانس !
غير أنى أراه يشهد أن لم يكُ بانيه فى الملوك بنكس

وهذا قول شوقي يذكر قصور قرطبة :

فتجلت لىَ القصور ومَن فيـ ـها من العزّ فى منازل قُعْسِ
ماضَفَتْ قط فى الملوك على نذ لِ المعالى ولا تردّت بنجسِ

ويتضح ذلك جداً حين يذكر الحمراء ويوازنها بالقصر الابيض فى المدائن ثم يختم القصيدة بهذا البيت الذى يختصرها اختصاراً :

واذا فاتك التفاتٌ الى الما ضى فقد غاب عنك وجه التأسّى !

— ٥ —

وأما معارضته ابن زيدون فى قصيدته النونية :

اضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا !

فيظهر أن شاعرنا استطاع أن يتسامى بعاطفته أو نظرته فى أول القصيدة لمّا تحدث عن العرب والوفاء لهم ، وكم فرق بين الوفاء لمحبوبة هى ولادة بنت المستكفى بالله لدى ابن زيدون وبين الوفاء لدولة ذاهبة هى — لدى شوقى — جلال الدين والأخلاق . يستهل شوقي قصيدته بخطاب ابن عباد ويوازن بين حاليهما :

يانائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يداً قصت جناحك جالت فى حواشينا !
رمَى بنا البين أيكاً غير سامرنا أخا الغريب ، وظلا غير نادينا

والحق أن شوقى هنا ظاهر واضح لايتأثر مثالا ولايحاول صنعة لفظية لانه انفرد بعاطفة شاكية ربما كانت أوسع أفقاً وأسمى درجة من عاطفة ابن زيدون الغردية :

آهاً لنا نازحيْ أيكٍ بأندلس ... وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع ، والاجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرضُ أدمعَهم ... ولا مفارقهم إلا مُصَلّينا
لو لم يسودوا بدين فيه مَنْبَهةٌ ... للناس كانت لهم أخلاقُهم دينا !

ويذكر مصر ويعود الى التمسك بالصنعة اللفظيـة ويقرب من ابن زيدون فى أسلوبه التصويرى :

ياساريَ البرق يرمى عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لمّا ترقرق فى دمع السماء دماً ... هاج البكا نخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه ... على نيام ولم تهتف بسالينا

* * *

ويا مُعَطّرة الوادى سرتْ سحراً ... فطاب كل طروح من مرامينا
هل من ذيولك مِسْكيٌّ نحمله ... غرائبَ الشوق وشياً من أمالينا
الى الذين وجدنا وُدَّ غيرهم ... دُنيا وودَّهم الصافى هو الدينا

وبعد الشكوى وعدم غناء الصبر يعود إلى مصر ومجدها ومشاهد النيل وآثاره ثم يعرج على حاله هو السابقة ، وكيف تنبه الدهر إليهم بعد نومه عنهم : —

ولم ندع الليالى صافياً ، فدعت ... (بأن نُغَصَّ فقال الدهر : آمينا !)
لو استطعنا لخضنا الجوَّ صاعقة ... والبرَّ ناراً وغمّى ، والبحرَ غسلينا
سعياً الى مصر ، نقضى حقّ ذاكرنا ... فيها إذا نسىَ الوافى وباكينا

وتنتهى قصيدته بالحنين الى والدته بحلوان .

* * *

ولشوقي نظير آخر فى الغربة والألم ولكنه ظفر بملك عتيد كان آية الشرق فى الغرب ، ذلك هو صقر قريش أو عبد الرحمن الداخل الفاتح الثانى للأندلس والمقيم فيه مجد أمية بعد أن أذيل منها لبنى هاشم فى الشرق ، وشوقى يعارض هنا لسان الدين بن الخطيب في موشحه :

جادك الغيثُ إذا الغيث همى ... يازمانَ الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك الا حلما ... فى الكرى أو خلسة المختلس

قال شوقي يرحمه الله :

مَن لنضوٍ يتنزّى ألماً ... برّح الشوقُ به فى الغَلسِ
حنَّ للبان وناجى العلما ... أين شرقُ الأرض من أندلس ؟

. . .

بلبلٌ علمه البينُ البيانْ ... بات فى حبل الشجون ارْتَبكا
فى سماء الليل مخلوعُ العِنانْ ... ضاقت الأرضُ عليه شَبَكا
كلما استوحش فى ظل الجنانْ ... جُنَّ فاستضحك من حيث بكى !
ارتدى بُرْنُسَهُ والتَثَما ... وخطا خُطوةَ شيخ مُرْعَسِ
ورُوى ذا حَدَبٍ إن جَثما ... فإنْ ارتدَّ بدا ذا قَعَس

وفى الحق أن هذا التوشيح قصة حقة لبطل من أبطال التاريخ استطاع شوقى أن يصورها تصويراً خيالياً رائعاً ، وأن يستنهض بها همة الشباب لو صحا الشباب ، وأن يبعث بها عاطفة الإجلال لهذا الصقر ومحبته والاشفاق عليه فى جهاده الأول أو بعبارة أخصر استطاع الشاعر أن يضم الناس الى جانب هذا البطل العظيم . ترى فى هذا التوشيح كيف انسلّ عبد الرحمن الداخل بين الخطوب وهو يتحرق حزناً على مجد أمية الزائل ، وطموحاً الى مجد آخر يعوض عليه فى الغرب ما أفلت منه فى الشرق ولكن شوقى يساير ، ويخلع عليه من نفس الحزن والأسى :

ناحَ إذْ جفناى فى أسر النجومْ ... رسفَا فى السهد ، والدمعُ طليقْ
أيها الصارخ من بحر الهمومْ ... ما عسى يُغنى غريقٌ عن غريقْ
إن هذا السهم لى منه كُلومْ ... كُلُّنا نازحُ أيكٍ وفريق
قلّبْ الدنيا تجدْهَا قِسَماً ... صُرِّفتْ من أنعُمٍ أو أبؤس
وانظر الناسَ تجدْ مَنْ سَلِمَا ... من سهام الدهر شجته القِسى !

ثم أخذ يعرض قصة هذا البطل فى تصوير قوى ، ويلم بما كان بين أمية والعباس وما قام به هذا البطل فى الأندلس من مجد يقوم على الخلق المتين والعزيمة الصادقة حتى مات وذهب رمسه وبقى ذكره فى ألسنة التاريخ . ولن نستطيع هنا استعراض هذا الموشح البديع وإنما نجده يتلخص كما قلت لك فى الحزن والاعتبار .

— ٦ —

وبعد لأى يودع شوقى منفاه إلى مصر، ويودع الأندلس هذا الوداع فى عاطفة وإن كان قديم المنهج تقليدىّ الأسلوب :

أنادى الرسمَ لو ملكَ الجوابا وأجزيه بدمعى لو أثابا
وقَلَّ لحقه العبرات تجرى وإن كانت سواد القلب ذابا !
سبقن مُقَبِّلاتِ الترب عنى وأدّين التحيةَ والخطابا
نثرتُ الدمع فى الدمن البوالى كنظمى فى كواعبها الشبابا !

* * *

وداعا أرض أندلس ! وهذا ثنائى إن رضيتِ به ثوابا
وما أثنيتُ إلا بعد علم وكم من جاهل أثنى فعابا
تخذتك موئلا فحلتُ أندى ذراً من وائل وأعزّ غابا

* * *

أحقٌ كنت للزهراء ساحاً وكنت لساكن الزاهى رحابا ؟
ولم تكُ (جورُ) أبهى منكِ ورداً ولم تك (بابلٌ) أشهى شرابا ؟
وأن المجد فى الدنيا رحيق إذا طال الزمان عليه طابا ؟

وليس من شك عندى ان هذه القصيدة تنكشف عن عاطفة فرحة تخلو أو تكاد من ذلك الحزن الذي كان يغشى شعر شوقى وهو فى صميم النفى وفى الأندلس ، فلا تحسّ هنا إلا الوفاء وعرفان الجميل والسرور بالعودة الى الوطن :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
وكل مسافر سيؤوب يوما إذا رُزق السلامة والإيابا
ولو أنى دعيتُ لكنتَ دينى عليه أقابل الحتمَ المجابا !

وقد عاد شوقى الى وطنه وأخذ منذ وصوله يتصل بالحياة الاجتماعية لمصر والمصريين ،وحسبك أن هذه القصيدة أنشدت فى اجتماع لجان التموين (بالأوبرا الملكية سنة ١٩٢٠ م.) أيام كان الغلاء آخذاً بالخناق والحياة المادية حرجة مضطربة وقد تناول الشاعر ذلك فى القسم الثانى من هذه القصيدة .

لست أزعم أن هذا كل ما قال شوقى فى الأندلس ، بل ربما كان الأرجح بل

الواقع أن لشوقى شعراً كثيراً قاله هناك لم يتيسر نشره للآن ، ومهما يكن الأمر فاننا نستطيع من هذا القسم الصغير الذى أشرنا إليه فى هذه السطور أن نتمثل شوقى فى هذه الفترة من حياته تمثّلاً أدبياً ممتازاً :

(١) فأول ما نلاحظ أنه لم يكن لشوقى مذهب اجتماعى أوفلسفى أو فكرة خاصة عن الحياة وكيف تكون ، لأن شوقى لم يكن إلى هذا العهد من شعراء الفكرة الذين يدعون الى مبدإ محدود معين ، فعهده الأول عهد ثناء على القصر ورجاله ثم تصوير ما يلابسه من مظاهر الملك وجلاله ، وهذا المذهب قديم شاع بين كثير من شعراء العرب فى القرون الأولى أيام كانوا يتخذون الشعر وسيلة للحياة المادية يوزعونه بين المديح والهجاء ، دون أن يكون هو نفسه غاية لجماله ولتصوير المشاعر والعواطف ، ودون أن يكون الشعر وسيلة لأداء ما يسمى الرسالة الحيوية للشاعر كالوطنية والاستقلال والاشتراكية والحرية وما إلى ذلك ، وربما كان من الغبن والإرهاق أن نطلب ذلك الى شوقى فى تلك البيئة العامة أو الخاصة التى كانت تحيط به، فقد كان يوجّه إلى مدحة الخديو أو الخليفة لا لفكرة الوطنية أو الزعامة الشرقية. وإنما كان ذلك كله لهذه الصلة بين شوقى وبين هذه النواحى العليا ، وهى صلة رسمية ليس غير عتادها الأشكال والمظاهر لا العقائد والمبادىء . فلم يكن شعره فى أوليات حياته — على أنه شعر المبتدىء — ممتازاً عن الشعر القديم فى موضوعه ومنهجه .

ولما نُفى انبعثت فى نفسه معانى حب الوطن ، وعدم الاغترار بالأيام ، والاعجاب بالبطولة ، ووجوب التبصر والاعتبار ، وكل تلك معان جزئية عامة لا تكوّن مذهباً إجتماعياً عاماً ، ولا تنضام فكرة فلسفية وعقيدة ممتازة يحيا بهـا الشاعر ، بل ربما كانت معانى طارئة بسبب هذا النفى ذهبت حدّتها بذهابه وإن بقيت آثارة منها فى شعره آخر حياته .

والحق أنك لا تجد هذه الخاصة إلا فى عدد قليل جداً من شعراء العربية كالمعرى والمتنبى وأبى نواس وطرفة وجميل ، وإن كان لأكثر شعرائها شخصيات فنية واضحة ولكن شعر المبادىء والعقائد عندنا قليل إلا إذا رأينا فى النفعية مبدأ فنياً !

واذا كان لابد لنا من ذكر فكرة كان شوقى يدور حولها أيام المنفى فهى العودة الى مصر وكفى .

(٢) وأما عواطفه التى سادت شعره واستأثرت به فى أول الأمر فالغالب انها

كانت عواطف شخصية ، وقلما كانت تتناول الناحية الاسلامية العامة أو الصالح المصرى . هى فى الغالب تلك المشاعر التى تتجه الى شخصه وما يصله بهذه الجهات العليا ، وقد رأينا فيما استعرضنا من شعره آنفاً أن عاطفة الحزن تملكته فى منفاه وربما لم يكن من المبالغة اذا اعتبرناه حزناً على نفسه وبعده عن مصر وعن آله وخاصة أمه (بحلوان) :

كنز (بحلوان) عند الله نطلبه خيرَ الودائع مِنْ خير المؤدينا
لو غاب كلُّ عزيز عنه غيبتنا لم يَأته الشوقُ إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أو له شجناً لم ندرِ أىَّ هوى الامَّينِ شاجينا

وربما كان من الحق أيضاً أن ما صحب هذا الحزن من العبرة والبصر فى التاريخ واستنباط المواعظ واستعراض الآيات ، كل ذلك كان خير ما امتاز به منفاه . فقد جعله شاعراً مديد البصر والبصيرة يشرف على الحياة ويصل بين الماضى والحاضر ، وسرُّ ذلك الشعور هو ما ألمَّ به وما حدث حوله :

فى بُرهة يذر (الأسِرَّةَ) نحسُها منلَ النجوم طوالعاً وأفولا

فإذا كتب لشوقي أن يُقرأ شعره الأندلسى فقد يكون ذلك لما فيه من هذه الناحية التاريخية . ولا سيما (صقر قريش) و (الأندلس) . ففى هاتين تغلب العاطفة العامة السامية التى تجد النفوس فيها مجال الروعة والإيناس .

(٣) لاتجد لشوقى خيالاً مبتكراً إلا فى النادر ، وطريقة تصويره ابيانى ، ليست إلا تأثراً لأساتذته من الشعراء السابقين . فالرسم والوفاء له . والوقوف عليه والتشبث به . وإرواؤه بالدموع ، والمواقف المحجلة ؛ والرمس الخالى ، وصنعاء وقس والعقيق والعرصات وغيرها ، كل تلك يستخدمها شوقى فى تصوير معانيه المتصلة بالحوادث العصرية . نعم يحاول شوقى عند ما يصف الآثار المصرية ومشاهد النيل أن يتحلل من هذه الصور تحللا لفظياً ويسدل عليها شيئا من حزن نفسه كما كان يفعل البحترى وابن زيدون وغيرهما :

وأرى (الجيزةَ) الحزينة تُكلى لم تُفق بعدُ من مناحة (رمسى)

والحق أنه هو الحزين :-

أكثرت ضجةَ السواقي عليه وسؤالَ اليراع عنه بهمس!

وقيامَ النخيل صفّرن شعراً ونجردنَ غيرَ طوقٍ وسَلسِ
وكأن الاهرامَ ميزانُ فرعو نَ بيومٍ على الجبابرِ نحسِ !

(٤) اسلوب شوقي هو اسلوب البحتري والمتنبي وابن زيدون والشريف وغيرهم من تلك المثل التي احتذاها الشاعر ورأى فيها القوة والجمال والرصانة والموسيقى مما هو أليق بمعانيه ونزعته في المحافظة على لغة القرآن كما هي بلاغة وقوة. وكم كان يكره شوقي هذه الميول الى تنوع القافية في القصيدة أو النزول الى لبان الأسلوب وهلهلته ، بل كان يعجب دائماً بهذا الرنين الموسيقي الذي يقرع الأسماع ويضمن له التأثير والاعجاب مهما يكن مداه طولاً وقصراً .

واذا كان لابد من اختصار ذلك كله في كلمة واحدة فلا شك عندي أن شوقي كان يتجه في شعره الى الماضي اكثر من الحاضر، واذا استطعنا أن نقول بأن حافظاً كان شاعر (مصر المظلومة) فقد كان شوقي ... ماذا ؟ ؟

احمد الشايب

◆◆◆◆◆

شوقي والمتنبي

في نوبٍ

أتيح لي منذ عشر سنوات ان أتصفح كتاباً ألفه ابوسعيد محمد بن احمد العبيدي وسماه « الابانة عن سرقات المتنبي » . وكنت وقتئذ متشبعاً بالاعجاب بالقدماء واكبارهم وتقديسهم، وأرى أن كل من اوغل في القدم من الشعراء كان اجود شعراً وأعلى كعباً في اللغة والأدب . وقد تأثرت بفكرة : « ما غادر الأول للآخر شيئاً » او كما قال « عنترة » في معلقته :

هل غادر الشعراء من متردمٍ أم هل رفعت الدارَ بعد توهمِ ؟

فلما وقع بيدي هذا الكتاب قلت إن ذلك ليس بالجديد ، فالمتنبي شاعر القرن الرابع الهجري وقد سبقه عدد غير قليل من الشعراء الاسلاميين والمخضرمين ، بل سبقه اكثر من مائة وخمسين شاعراً هم فحول شعراء الجاهلية الذين كانت القبائل

تعتزّ بهم وتفاخر بنبوغهم ، فليس بعيداً ان يكون المتنبى قد أخذ عن بعض هؤلاء الشعراء شيئاً ، خصوصاً فى أوائل عهده وفى مطلع حياته الشعرية .

وشرعت أتصفح الكتاب متمعناً فيما يحويه ، فألفيت صاحبه يتبرأ فى مقدمته من الظلم ، ويتشيع للعدل والانصاف ، ثم هو ينعى على ادباء زمانه ومتأدبيه حالةً ننعيها نحن على متأدبى زماننا وناشئته ، إذ يأخذون بالشهرة فى الادب ، ولا يحكّمون الفهم والادراك أو القواعد الادبية فيما يقرأون أو يسمعون . فهم يتشيعون للشاعر أو الكاتب متى كان اسمه معروفاً وفى المجالس بالشهرة محفوفاً . فاذا قرءوا لشاعر من هذا الطراز قصيداً ، او طالعوا لكاتب مشهور مقالا حكموا له بالسبق والتقديم . وتحدثوا معجبين ببلاغته وفصاحته وما له من سمو الفكرة وسعة الخيال واصابة المرمى ، وما الى ذلك مما لا ينهض به كل قصيد او مقال من القصائد والمقالات التى تزدان بامضاء أديب مشهور .

وقد حدثنى أديب مجهول أنه كتب مرة قطعة أدبية فى رثاء والدته ، وكتب عليها أنها ترجمة لقطعة وضعها «أناتول فرانس» يرثى بها والدته . ثم قدم الأديب المجهول قطعته لاحدى المجلات العربية الكبرى فحازت إعجاباً كبيراً لدى رئيس هذه المجلة وعنى بنشرها بين المقالات الأولى فى مجلته !

وما ذلك الا لأن أناتول فرانس قد حاز من الشهرة ما جعل كل شىء ينسب اليه محبوباً مقبولا . ويظهر أن الشهرة تعمى عن العيوب ، فهى تقرب الشخص إلى الناس بحيث ينسون نقائصه ولا يرون زلاته ، ويتمثلونه دمية بريئة من كل عيب ونقص — استغفر الله — بل انهم يتمثلونه صنماً لا يبحثون فى حقيقته ، ولا يجيزون لانفسهم يوماً أن ينقدوه أو يذموه ، وأغلب الظن انهم كذلك يعمون عن محامده ! واذا كانت له ناحية أو نواح جديرة بأن تفرد بالتقدير والاعجاب طمت الشهرة عليها ، فاغرقتها بين سائر النواحى التى يتشيع لها الجهلة والطغام . وكذلك الشهرة فى زماننا وفى الزمان الذى شكا منه صاحب كتاب « سرقات المتنبى » بل فى كل زمان تضعف فيه الثقافة ويعدم فيه جمهرةُ المتعلمين سعةَ الاطلاع ، وامعانَ النظر ، وكثرةَ الدرس ، وتحكيمَ الفهم والادراك .

وقد ظننتُ أن صاحب « سرقات المتنبى » سينهج لنفسه منهجاً حسناً خصوصا بعد ما قدمه فى مقدمته من التبرؤ من الظلم والتشيع للعدل والانصاف ، ولكن الرجل

ـ على ما يظهر ـ كان موغر الصدر على المتنبي ، وكان حاقداً عليه كل الحقد لشهرته التي حازها واصبحت كالقدر الذي لا يغالب ! وقد حفزه على وضع كتابه هذا كلة سمعها من اديب متشيع للمتنبي في أحد مجالس الرؤساء ، خلاصتها : «سبحان من ختم بهذا الفاضل (يعني المتنبي) الفحول من الشعراء واكرمه ، وجعل له من المحاسن ما يعثر فيه كل من تقدمه . ولو أُنصِف لعلق شعره كالسبع المعلقات من الكعبة » .

فردّ عليه ابو سعيد بكلام لولبي لادع اثبته في مقدمة كتابه . وهو من أجود مايرد به على خصم ، وينتقص به مقدار شاعر قد امتلكت شهرته القلوب والاذهان واصبح لا حيلة لحاقد عليه الا أن أن يتمحل عند ذمه في ثنائه ، ويستعير محامده لاظهار نقائصه ، ويستخدم دلائل قوته لاشهار مواطن ضعفه بأسلوب أدبي أظن لوعنينا بدرسه في هذه الايام لأغنانا عن الأساليب المنحطة التي يستخدمها بعض الكتاب في المهاترات الأدبية والسياسية ، ولكان لنا من ذلك أسلوب فني يلذ لكل أديب ومحب للأدب أن يقرأه للفن فقط ولو لم يكن له صلة بموضوعه .

على أن أبا سعيد قد ذكر للمتنبي سرقات هي أبعد ما تكون عن وصف السرقة ، بل أن بعضها يشهد بفضله ، ويدل على أن أبا سعيد قد بالغ وتجاوز حدّ أوصاف السرقة والسلخ والمسخ والنسخ التي يذكرها علماء البديع ، وأوغل في ذلك كله حتى ترى ان الرجل قد لجّ في غلوائه ، وتجنّى على المتنبي في كثير من الابيات التي ادعى أنها مسروقة . وما رأيك في قول أبي سعيد من أن أبا الطيب المتنبي قد أخذ هذا البيت :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

من قول محمد البيدق الشيباني :

الظلم طبعك والعفاف تكلف والطبع أقوى والتكلف أضعف

وما رأيك أيضاً في قول المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

هل ترى كما رأى أبو سعيد أنه مأخوذ من قول محمد البجلي الكوفي :

هذا الزمان شئومٌ كما تراه غشومُ
الجهل فيه جميل والعقل غثٌّ ملوم
والمال طيفٌ ولكنْ على اللئام يحوم

تقول هل ترى كما رأى ابو سعيد مع أن معنى بيت المتنبي يخالف معنى البيت الثاني من هذه الابيات الثلاثة وهو الذي يشير ابو سعيد أن المتنبي سطا عليه فسلبه معناه ! هذا فضلا عن اختلاف الصياغة التي هي في الحقيقة أهم ما يعول عليه الناقد الاديب ، والتي هي الميزة التي تنفرد بها شخصيته كل شاعر وكل أديب . أما المعاني فهي مشاعة بين افواه العامة اكثر من شيوعها على افواه الأدباء ، وهي تتوارد على خواطر الكبار والصغار والعلماء والجهلاء . والفضل في أن يكون الانسان له ملكة يستطيع بها التعبير عن هذه المعاني . وتختلف منازل الادباء باختلاف القدرة في اجادة التعبير وحسن البيان وقوة التأثير . وان الامي الجاهل ليلهج من المعاني بما لو صيغ صياغة فنية لكان آية من آيات البلاغة ومعجزة من معجزات البيان .

لذلك لا ارى ان السرقة الادبية لا تكون سرقة حقيقية الا اذا سطا الاديب او الشاعر على صياغة شاعر من الشعراء وعلى خياله وانتحل شخصيته في تعبيره الذي يميزه عمن سواه مع الاخذ من معناه أولفظه . أما اخذ المعنى مجرداً وصوغه صياغة عربية أخرى يبث فيها الشاعر روحه ، ويطبعها بطابعه ، فليس ذلك بسرقة . وانما مثل الشاعرين في هذه الحال كمثل مصورين وقفا امام منظر واحد من مناظر الطبيعة المشاعة بين الجميع ، فرسم كل منهما له صورة تتسق مع ذوقه ، وتتفق واحساسه بالحال ، ومقدار تأثره به . فترى لكل منهما طابعاً خاصاً مع وحدة المنظر ، وتطالع في كل صورة منهما روحاً تختلف عن الأخرى ، وذوقاً يخالف ذوق الآخر . ويمكنك في هذه الحال ان تحكم أيهما أبرع في التصوير ، واقدر على استخدام موهبته أحسن استخدام .

وهذا ما أريد ان افرده بين شوقي والمتنبي . فشوقي بدأ حياته بالنسج على منوال المتنبي واستمر على هذا المنوال طول حياته ، وكأنه تشبع بروح المتنبي من الصغر فلازمته هذه الروح ، وأخذ في كثير من الاحيان يقلد صياغة المتنبي ويحذو حذوه ويعارضه . وله في هذا الاحتذاء وتلك المعارضة كثير من القصائد .

على ان احتذاء المتنبي ومعارضته ليستا من السهولة بحيث يغفل الناقد عندها ما وهب شاعر كشوقي من مقدرة على إحكام الاحتذاء والتقليد ، وما منح من ملكة خصبة تساعده على ان يعارض شاعراً من اكبر شعراء العربية ويجيد في تلك المعارضة الى حد جدير بالتقدير ، وإن كبا في بعض الاحيان أو غلبه ضعفه امام قوة المتنبي .

قد تقرأ القصيدة من قصائد شوقي التي يعارض او يحاكي فيها قصائد المتنبي فتحس عندها بتلك القوة التي امتاز بها المتنبي ، وتشاهد من فيض المعاني والحكم ما يقنعك انه سباح فياض . فاذا رجعت الى قصيدة المتنبي وجدتها بمثابة الدليل الذي يقود شوقي ، والقائد الذي يقوده ؛ ولكنك تجده في بعض الاحيان يسبق الدليل او القائد بخطوات كثيرة ويزيد عليه وترى مظهر هذه الزيادة في عدد الابيات والاغراض المتعددة التي يقتضيها الموضوع .

ونضرب لذلك مثلاً في هذه المحالة قصيدة شوقي « صدى الحرب » في وصف الوقائع العثمانية اليونانية . فان عدد ابياتها ٣٦٠ بيتاً تناول فيها مدح السلطان عبد الحميد ، وعيد جلوسه ، ومعجزات الجنود على الحدود ، والحالة في بحر الروم ، ومنعة السواحل العثمانية ، وزينب المتطوعة في الموقعة ، ومضيق ملونا ، والقائد عبد الازل باشا ، وهزيمة طرناد ، والتلاقي على سهل فرسالا ، وغصب دوموقو ، وأحلام اليونان ، وعفو السلطان ، والتماس القبول .

فهذه القصيدة هي عدة قصائد مجتمعة قد اختلفت اغراضها وصورها وان اتحدت في الوزن والقافية ، وهذا ما ساعده على اطالتها الى هذا الحد .

فاذا قارناها بيائية المتنبي التي يمدح فيها كافوراً والتي مطلعها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب !

وجدنا أن شوقي قد اتخذ هذه القصيدة كالدليل في نظم قصيدته . ولم يكتف بذلك بل انه عمد الى سلخ تراكيبها ومعانيها وسطا على نحو عشرين بيتاً من ابياتها . نقول سطا وسرق نحو عشرين بيتاً من سبعة وأربعين وهي عدد أبيات قصيدة المتنبي ، وادخلها بصياغتها في قصيدته . وقد كنا ننزهه عن السرقة لو انه أخذ معنى هذه الابيات دون الصياغة التي هي طابع الشاعر ومظهر شخصيته . ولكنه لم يتورع عن أن يغتصب ابياتاً شادها المتنبي بقوة سليقته ، ومتانة طبعه وقدرته على تصريف القول بما لم يستطع احد قبله ان يصرفه حتى غالبت ملكته القوية جميع انداده من الشعراء وظهرت عليهم وجعلته يقول :

ودع كل صوت غير صوتي فانني انا الصائح المحكيّ والآخر الصدى

لم يتورع « شوقي » فأخذ عشرين أو اكثر من العشرين بيتاً ، وبدأ قصيدته بالصياغة التي بدأ بها المتنبي قصيدته فقال :

(بسيفك يعلو الحق والحق اغلب) وينصر دين الله ايان تضرب

كما قال المتنبي فى مطلع قصيدته :

(اغالب فيك الشوق والشوق اغلب) واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

يأبى شوقى إلا أن يأخذ الشطر الآخر من بيت المتنبي ، فيقول فى موضع آخر:

تبالغ بالرامى وتزهو بما رمى (وتعجب بالقواد والجند أعجب)

وهذا نفس ما فعله شوقى فى مطلع قصيدة أخرى ، بل فى مطلع عدة قصائد . من ذلك قصيدته فى مدح الخديو السابق الذى يقول فى مطلعها :

(يود من الارواح ما لا تودە ويفتك فيها مسرفاً وهى جندە)

فقد اخذه من مطلع قصيدة المتنبي فى مدح كافور وهو :

(أود من الايام ما لا تودە وأشكو اليها بيننا وهى جندە)

ولست أريد أن أتوسع فى هذا الباب ، فقد اعددت له كتاباً خاصاً . وحسبي فى هذا المقال أن أتحدث عن قصيدة « صدى الحرب » التى نحن بصددها ، والتى كان شوقى نفسه يفاخر بها فى أيامه الاخيرة ، وقد جعلها ثالث قصيدة فى الجزء الأول من ديوانه الجديد .

قال شوقى فى مطلع هذه القصيدة أيضا :

(وينصر دين الله أيان تضرب)

وهل تحسب أنه عبر هذا التعبير لو لم يكن المتنبي قال فى بعض أبياته :

(أراقب فيه الشمس أيان تغرب)

وقد يحسب بعضهم أننا نتجنّى على شوقى حينما نقول أنه سرق الصياغة ، ولكن الواقع أنه سرق أو على الأقل اهتدى بتعبير المتنبي لكى يفصح عما فى ضميره . وهذا اذا لم يكن سرقة فهو احتذاء وتقليد .

. ويقول شوقى :

ومملكة اليونان محلولةُ العرى (رجاؤك يعطيها ، وخوفك يسلب)

وقد أخذه من قول المتنبي :

إذا لم تنطْ بى ضيعة أو ولاية (فجودك يكسونى ، وشغلك يسلب)

ويقول شوقي :

تروح المنايا الزُّرق فيه وتغتدى (وما هى إلا الموج يأتى ويذهب)

فأخذه من المتنبي وسلخ خياله فجعله للبحر بدل الفرس فى قول المتنبي يصف فرسه:

له فضلة عن جسمه فى اهـابه (تجيء على صدر رحيب وتذهب)

ويقول المتنبي فى وصف فرسه بعد البيت السابق :

(شققت به الظلماء أدنى عنانه فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب)

(وأصرع أىّ الوحش قفّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب)

فيأتى شوقى ويسطو على هذا الوصف ويقول فى وصف الحاج عبد الأزل باشا وفرسه :

اذا شهداها جدّدا هزة الصبا كما يتصابى ذو الثمانين يطرب

(فيهتز هذا كالحسام وينثنى وينفر هذا كالغزال ويلعب)

الى أن يقول :

(ذرونى وشأنى والوغى لا مبالياً إلى الموت أمشى أم الى الموت أركب)

وأنت إذا قارنت هذا البيت والذى سبقه ببيتى المتنبي تجد أن شوقى قد سطا على خيالها سطواً واضحاً ، ورأى أن لامفر من أخذ كلمتى « يلعب » و « أركب » مع أخذه من خيال المتنبي معناه .

وانظر الى شوقى إذ يقول :

(فقبلت كفاً كان بالسيف ضارباً وقبلت سيفاً كان بالكف يضرب)

ثم أقرأ بعد ذلك قول المتنبي :

(إذا ضربت فى الحرب بالسيف كفه تبينت أن السيف بالكف يضرب)

ولا والله ، لو أن شوقى أخذ المعنى وصاغه صياغة أخرى تسمو عن صياغة المتنبي أو لو أنه وضعه وضعاً أقوى من وضع المتنبي ونفث فيه من شاعريته لما بخلتُ عليه بالتقدير والاعجاب ، لأنه يكون قد أتعب نفسه وأتى من عنده بشىء ينبغى أن يكافأ عليه بالتقدير والاعجاب .

ولكن شوقى رحمه الله كان مغرماً بالتقليد الى حد كبير . وهذا التقليد تلحظه فى عدة نواح من آثاره التى خلفها حتى فى دواياته وكتابه النثرى (أسواق الذهب)

الذى وضعه على نمق (أطواق الذهب) للزمخشرى ، و (أطباق الذهب) للأصفهانى ، وليس هنا مجال واسع للافاضة فى هذا الموضوع

واسمعه وقد أراد أن يعارض المتنبى وهو يخاطب كافوراً ويقول له :

(سالتَ سيوفاً علمتْ كل خاطب ... على كل عود كيف يدعو ويخطب)

فيأتى شوقى ويقول ـ معارضاً أو محاكياً أو مجاذباً أو غاصباً أو ماشئت فقل ـ وهو يخاطب السلطان عبد الحميد :

(حسامك من سقراط فى الخطب أخطب ... وعودك من عود المنابر أصلب)

وهذا مسخ ما بعده مسخ لبيت المتنبى . وما أشبه هذا التعبير بقول القائل : « ضربرشاك أحسن من ضربوشه ، وعصاك أجد من عصاه » ، على أنه فضلا عن هذا التقليد والتعبير الممسوخ قد وقع فى خطأ نحوى فى هذا البيت حيث قدم « من » والمفعول : « من سقراط » و « من عود المنابر » على أفعل التفضيل : « أخطب » و « أصلب » ، والصحيح أن يقال : حسامك أخطب من سقراط ، وعودك أصلب من عود المنابر .

وقد وقع فى مثل هذا الخطأ فى البيت الذى يليه :

(وعزمك من عزم أمضى بديهة ... وأجلى بياناً فى القلوب وأعذب)

وأراد أن يعطى السرقة فى الشطر الثانى فقال أجلى (بالجيم) بدل أعلى وفى القلوب بدل فى الفؤاد كما قال المتنبى .

(فان لم تكن الا أبو المسك أو همُ ... فانك أحلى فى الفؤاد وأعذب)

وفى هذا التغيير بين أحلى وأجلى ، وفى الفؤاد وفى القلوب ، مايدل على أن السرقة والتلاعب مقصودان .

وقد أخطأ شوقى أيضاً فى قوله :

فلما دجى داجى العوان وأطبقت ... (تبلج والنصرَ الهلالُ المحبَّبُ)

و (النصر) فى هذا البيت مفعول معه و (الهلالُ) مصحوبه . وقد تقدم هنا المفعول معه على مصحوبه ، وهذا خطأ نحوى لأنه من المقرر عند علماء النحو ألا يتقدم المفعول معه على عامله فلا تقول « والنيلَ سرتُ » ولا على مصحوبه فلا تقول : « أقبل والجيشَ الأميرُ » . وما فى هذا البيت ينطبق على هذا المثال . والصواب أن يقال فيه : تبلج الهلالُ والنصرَ .

نرجع فنقول إن شوقي أبى الا أن يوغل فى الاخذ من قصيدة المتنبي غير هيّاب ولا وجل ، وكأنها مباحة له ، فاذا قال المتنبي :

ولو جاز ان يحووا علاك وهبتها (ولكنّ من الاشياء مالیس یوهب)

تبعه شوقي فقال :

فلولا سيوف الترك جرّب غيركم (ولكنّ من الاشياء ما لا يجرّب)

واذا قال المتنبي :

واظلم اهل الظلم من بات حاسداً (لمن بات فى نعمائه يتقلب)

انتحل شوقي الشطر الثانى من هذا البيت فقال .

سلاماً (ملونا) واحتفاظاً وعصمة (لمن بات فى عالى الرضا يتقلب)

واذا قال المتنبي :

وكل امرىء يولى الجميل محبب (وكل مكان ينبت العزّ طيب)

حسده شوقي فابى الا ان يأخذه لنفسه أو يأخذ صياغة الشطر الثانى ويصيغها فى شعره بلا تورع ولا إباء ، فيقول :

وهل انت الا الشعر فى كل أمة (تكنّى لسان فى مديحك طيب)

وانك لتجد فى بيت شوقي تخاذلاً وعدم ارتباط لأن الشطر الثانى غير منسجم مع الأول كانسجامه فى بيت المتنبي الموضوع فيه وضعاً طبيعياً

وكذلك اذا قال المتنبي :

(وأخلاق كافور اذا شئت مدحها واني (أنا) أهجى عليّ وأكتب)

نأى شوقي فيحسب انه سيلحق المتنبي فى هذا المعنى وفى هذا الوصف النوى المحكم المملوء قوة وشعوراً والذى يصل الى الغرض من اقرب طريق . فنقول إنه فيقول مخاطباً السلطان :

(مدحتك والدنيا لسانٌ واهلها جميعاً لسانٌ عليان وأكتب)

ويقول المتنبي مخاطباً كافور بعد البيت السابق :

(اذا ترك الانسان اهلاً وراءه ونمّ صحاحاً فما يتغرب)

فيقول شوقي :

(يلاقي بعيد الاهل عندك اهله ويترح فى اوطانه المتغرب)

لا أريد ان أطيل فى ايراد الامثلة من قصيدة واحدة أودع فيها شوقى كثيراً من صياغات المتنبى وتعبيراته واخيلته ومعانيه . ولقد جرت بينى وأحد الاصدقاء مناقشة فى هذا الصدد فكان اعتذار هذا الصديق عن شوقى انه قال هذه القصيدة فى مفتتح حياته مع انه قالها فى اوج نضوجه الشعرى وفى عهد كهولته . على انه اذا كانت هذه القصيدة ليست من عيون الشوقيات التى يفاخر بها شوقى فلماذا وضعها فى صدر الجزء الاول من ديوانه الجديد ، ولماذا لم يحذف الابيات التى انتحلها من المتنبى وغيره ؟ ثم لماذا بدت هذه الروح فى كثير من اشعار شوقى حتى فى قصائده الأخيرة بل فى آخر مرثية له ، وهى التى رثا بها حافظ ابراهيم ؟ ونذكر هنا على سبيل المثال قوله :

ووددتُ لو أنى فداك من الردى والكاذبون المرجفون فدائى !

فقد نسجه من قول المتنبى :

تطيع الحاسدين وأنت مرءٌ جُعلتُ فداءه وهمُ فدائى !

ونستطيع ان نأتى بكثير من الشواهد على ذلك حتى من قصائده الاخيرة التى لم يمض عليها غير بضع سنوات . أليس شوقى هو الذى حذا حذو المتنبى فى مطلع قصيدته التى مدح بها على بن منصور الحاجب ، والتى بدأها بالغزل فقال :

بأبى الشموس الجانحات غوارباً اللابسات من الحرير جلابيا
المنهبات قلوبنا وعقولنا وجناتهن النـاهبات النـاهبا
الناعمات القاتلات المحييات المبديات من الدلال غرائبا
حاولن تفديتى وخفن مراقباً فوضعن ايديهن فوق ترائبا
وبسمن عن برد خشيت أذيبه من حر انفاسى ، فكنت الذائبا !

واستمر فى هذا الغزل الى ان تخلص الى ممدوحه :

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان الىَّ منها عاتبا

فجاء شوقى على هذا المنوال وعلى هذه الصياغة نفسها وان اختلفت المعانى فقال:

بأبى وروحى الناعمات الغيدا البـاسمات عن اليتيم نضيدا
الرانيات بكل أحور فاتر يذر الحلىَّ من القلوب عميدا
الراويات من السلاف محاجراً الناهلات سوالفاً وخدودا
اللاعبات على النسيم غدائراً الراتعات مع النسيم قدودا

أقبلن فى ذهب الأصيل ووشيه ملء الغلائل لؤلؤاً وفريدا

إلى آخر ماقال . . . .

وأحسب أننى لو أطلت فى هذا الباب لما اتسع له نطاق هذه المجلة . ولست أريد أن أظلم شوقى أو أتجنى عليه خصوصاً بعد أن خلا ميدانه واصبح فكرة بين طيات الزمن بعد أن كان شخصاً مجسماً له مطامعه التى كان لا يألو جهداً فى ارضائها بما جُبلت عليه نفسه من حب الشهرة والغرام بها والسعى اليها من كل سبيل .

نعم لا أريد أن أظلمه ولا أتجنى عليه ، وأنا أعلم أن له من القصائد العصماء ماتكفى الواحدة منها لأن تخلد ذكره ، وأن لهمن الفضل فى النهضة الأدبية الأخيرة مايجب أن يعترف به كل من يتصدى للكتابة عنه ، ولكننى أقصد فيما أكتبه فى هذه المجلة وما كتبته فى مجلات أخرى ، وما سوف أكتبه فى كتاب خاص، الى أن أتحرى خدمة الحقيقة والأدب نفسه ، لا أن أتشيع للأسماء والألقاب مهما بلغت هذه الأسماء والألقاب من شهرة وخطر ؟

طاهر الطناحى

◆◆◆◆◆

معارضات شوقى فى المرآة

البردتان — الداليتان — السينيتان

وجلست لأكتب عن شوقى بعد ما مضى عليه فى جوار ربه اكثر من أربعين نهاراً وأصبح هو وشعره أمانة فى يد التاريخ الذى لا يغبن ولا يحابى .

وكان بودى أن يواتينى الفراغ فأتناول ناحية من شعره بنوع من الدرس والتحليل تطمئن اليه نفسى ، ونفوس القراء . ولكن الشواغل وما أكثرها والظروف وما أقساها أبت إلا أن يجىء بحث اليوم قاصراً على دراسة قصائد ثلاث هى فى الحق عرائس شعره . عارض فيها ثلاثة شعراء يشهد التاريخ أنهم كانوا من أعلام الشعر وحاملى لوائه فى عصورهم : ونعنى بهم أبا عبيد الله البوصيرى فى بردته — وأبا اسحاق الحصرى فى داليته — وأبا عبادة البحترى فى سينيته . بَيْد أنى أعلم أنّ قصيدة واحدة من هذه القصائد الثلاث التى نحاول اليوم دراستها لو شئنا تحليلها والموازنة

العادلة الدقيقة بينها وبين مقابلتها ما وسعنا هذا العدد بأكمله ولذلك سنقتصر فى دراستنا لها على المقابلة السريعة بينها والاشارة الى المعانى التى اشترك فيها الشاعران والتى انفرد بها كل منهما ، وهل كان الثانى مبتكراً فى معارضته أومقلداً ، وإذا كان مقلداً فما مبلغ نجاحه وتوفيقه فى هذا التقليد .

﴿ البردتان ﴾

كان ابو عبد الله صاحب البردة تقياً صالحاً مشغوفاً بالعبادة متفانياً فى حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن هذا الحب الطافح فاضت هذه المنظومة الطويلة فهى فى الحق صورة لنفسه الطاهرة ومرآة لاحساسه نحو الرسول وآل بيته . وحسبك أن تعلم أنه كان مريضاً فشفى بفضل نظمها وإنشادها وأنه كان يرى الرسول صلى الله عليه وسلم خلال نظمه لها وأنه قد أتم لابى عبد الله فى نومه بحثاً كان قد استعصى عليه إتمامه

فهل كان شوقى كذلك ؟ وهل كان متعلقاً بالرسول مشغولاً به كما كان صاحبه ؟ وهل كانت له بالرسول تلك الصلة العالية التى اجتمعت لابى عبد الله وتحدث عنها جل المؤرخين ؟ هذا ما لانستطيع تحديده ولانريد الخوض فيه حينما نحن نجلد عن أن يكون قد نظمها لمنازع بردة صاحبه مكانتها أمام الموتى وهو القائل :

أرى رمماً مشيعةً وأسمع أعْظُماً صَوتت
ولو تكلموا لم نسطع حَلالُ الموتِ فى الموتِ

ولكن الذى أعتقده ولا أومن بسواه أن شوقى رحمه الله انما نظمها حباً وطمعاً فى الشهرة التى نالها صاحبه ، وهذا الغرض وحده هو الذى حداه الى إخراجها واخراج أخواتها على ما سنرى .

وكأنى به قد أراد أن يشهر فى جميع الأوساط ويتعرف الى كل الطبقات فنظم هذه القصيدة الدينية التى قربت بحق ما بينه وبين المتدينين والمتصوفين فى هذا البلد ولهذا لانتراءى لنا فى بردة شوقى تلك العاطفة الفياضة التى تكاد تلمسها فى بردة البوصيرى ولا تلمح فيها الروعة والجلال اللذين تلمحهما فى أختها ، لا لأنها أقل منها بلاغة وانسجاماً ولكن لانه يعبر فيها عن شعور غيره ، وليست النائحة كالثكلى . ونعود الى البوصيرى فنجده قد قسم بردته قسمة تقريبية الى عشرة أقسام بدأها بالغزل وشكوى

الزمان ، ثم التحذير من النفس ، ثم المدح ، وحاكاه شوقي في ذلك وإن كان قد زاد في بعض النواحي وأوجز في بعضها الآخر .

وقد طرّق البوصيري لمدح الرسول وهو بيت القصيد بأكثر من خمسة وعشرين بيتاً وأسرف في ذلك شاعرنا حتى أوصل مقدمته الى خمسين بيتاً ، وسننظر أأحسن في ذلك أم أساء .

يقول البوصيري في مطلع بردته :

أمِنْ تذكّر جيران بذي سلم ... مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدم

ويقول أمير الشعراء :

ريمٌ على القاع بين البان والعلم ... أحلّ سفكك بين الأشهر الحرم

وأنا أعتقد أنّ شاعرنا قد وُفّق كثيراً في اختيار هذا المطلع الموسيقي الرائع وكان أبرع من صاحبه استهلالاً وأحسن ابتداءً . ولو أنه استعمل شطر البيت الخامس من بردته في بناء ذلك المطلع الذي تراه فوق ما يبدو فيه من حسن السبك وائتلاف الألفاظ يحمل بين طيّاته معاني جديدة ساسية حينما لم يزد صاحبه على هذا المعنى المطروق ونعني به بكاء الانسان على فراق أحبته ولم يخرجه هذا الاستفهام الذي له مكانته من البيت عن كونه مبالغة غير مقبولة .

وقد ترى ذلك التقليد الذي حدثتك عنه واضحاً جلياً اذا قرأت للبوصيري هذا البيت :

عوّدتني النصح لكن لست اسمعهُ ... إن الحبَّ عن العذال في صمم

وقرأت الى جانبه قول شوقي :

لقد ألِفْتك اذناً غير واعية ... وربّ منتصت والقلبُ في صمم

ويدرك مقدار عجزه عن مداناته .

ويخلص البوصيري من ذلك الى ذم النفس والتحذير من هواها بالبيت الآتي :

فانّ أمّارتي بالسّوء ما اتعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم

ولو قرأت ما قبله وما بعده لرأيت أنه انتقال طبيعي لا يكاد يدرك بينما تراه شاعرنا حين لم يوفق الى بيت يتخلص به من الغزل الى ما يريد ـ ينتقل انتقالاً جديداً لا صلة بينه وبين ما قبله ويفصل ما بين المعنيين بحرف النداء فيقول :

لم اغش مغناك إلا فى غضون كرىً مغناك أبعدُ للمشتاق من إدم
يانفسُ دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حُسْنُ مبتسم

وقد ذكر البوصيرى فى هذا الصدد أكثر من خمسة عشر بيتاً ضمّن كل بيت حكمة خالدة قُدِّر لها الذيوع فسارت مسير الشمس فى الآفاق ـ وكذلك فعل شوقى وزاد عليه فى رائع الحكم وبالغ العظات .

ولقد تخلص بعد ذلك كل منهما إلى مدح الرسول وهو قوام هذه المنظومة ، فقال البوصيرى :

ولا تزوّدتُ قبل الموت نافلةً ولم أصلِّ سوى فرضٍ ولم أصُمِ
ظلمتُ سنّة من أحيا الظلامَ الى أن اشتكت قدماه الضرَّ من ورمِ

وقال شاعرنا :

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة قدَّمتُ بين يديه عبرةَ الندمِ
لزمتُ باب أمير الأنبياء ومن يمسكْ بفتاح باب الله يعتصمِ

وكلاهما قد أحسن التخلص وأجاد الانتقال ، وإن كان الانسجام فى الأصل أظهرَ والاتصالُ أشدَّ وأوضحَ . وإخالك لا تجهل أن (أمير الأنبياء) الذى ورد فى هذا البيت تعبير جديد لم يُسبق اليه الشاعر .

وقد تحدَّث كل من الشاعرين بعد ذلك عن مولد الرسول ، فقال الأول :

أبانَ مولدُه عن طيب عنصره يا طيبَ مبتدأ منه ومختتم

وقال الثانى :

أسرتْ بشائر بالهادى ومولده فى الشرق والغرب مَسْرى النور فى الظلم

وأنت ترى أن البيت الثانى وإن كان أبلغ فى التصوير وأوضح فى الاتساق فان الأول يتجلّى فيه حبُّ المادح للممدوح وتفانيه فى شخصه ـ فضلا عما يحمله الشطر الأول من المعانى السامية التى لا تخفى على اللبيب .

وقد قال الأول بعد البيت السابق :

وبات إيوانُ كسرى وهو منصدع كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

وأراد شاعرنا أن يحاكيه فى ذلك فقال :

ربعت لها شُرفُ الايوان فانصدعت من صدمة الحق لامن صدمة العدم

وبهذا التشبيه الجميل استطاع الأول أن يصف لك حالتين : حال ايوان كسرى وحال الفرس عند مولد الرسول كل منهما فى شطر من البيت حينما لم يستطع شاعرنا بعد الجهد أن يعبر ببيته إلاّ عن المعنى الأول منهما ، مع ما بينهما من بون شاسع تستطيع أن تلمحه فى الفرق بين قول الأول : انصدع الايوان ، وقول الثانى : ربعت الشرفات . ولقد أسهب شوقى بعد ذلك فى ذكر معجزات الرسول فذكر الاسراء والمعراج والهجرة ثم انتقل إلى الغزو والجهاد وشرف القرآن ، وذكر فى ذلك أكثر من مائة بيت ولعل السبب الذى مكنه من ذلك انما هو اتساع نواحى الفضل عند الرسول وكثرة ما أثر عنه من حميد الصفات وجليل الأعمال . ولقد تعرض البوصيرى فى بردته لوصف القرآن الكريم وعجز العرب عن معارضته وذكر فى ذلك فصلا كاملا يستريح اليه الباحث وأجمل ذلك شاعرنا فى أبيات قلائل ليس فيها ما يستحق الاعجاب ويستأهل الثناء سوى هذا البيت :

آياته كلما طال المدى جدد يزينهنّ جلالُ العتق والقِدَم

أما الغزو والجهاد فى سبيل الله فقد تحدّث عنه كل منهما كما أسلفنا وإن كان البوصيرى قد اقتصر على وصف المسلمين وانتصاراتهم وبسالتهم فى الحروب وما شابه ذلك حينما شوقى لم يقف عند هذا الحد بل تراه يتحدث اليك عن سر الفتح الاسلامى ، وحال الناس قبل الاسلام ، وفائده الحروب والدولات التى قضى عليها الاسلام ، ويبسط أمامك صفحة خالدة من تاريخ المسلمين فى حياتهم الأولى ، وهذه محمدة لأمير الشعراء وميزة له لا نستطيع اغفالها .

وبعد هذا ترى البوصيرى يناجى الرسول صلى الله عليه وسلم فى عدة ابيات ضمنها الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة والتوسل بالرسول وتعليق الآمال عليه والتشرف بتسميته باسمه ، ويقلده شوقى فى كل ذلك فيبدع ويجيد ولا سيما فى المعنى الأخير حيث يقول :

يا أحمد الخير لى جاهٌ بتسميتى وكيف لا يتسامى بالرسول سَمى

وإن كان لم يقل فى ذلك اكثر من بيتين اثنين مما جعلنا نشك فى اخلاصه فيما يقول . ثم يختتم الاول بردته بعرض مطالبه وبسط آماله والضراعة الى الله وطلب الرحمة والمغفرة ، وكذلك يختتم شاعرنا بردته بالصلاة على الرسول وآل بيته الطيبين الطاهرين .

بعد هذه الموازنة السريعة بين البردتين نستطيع ان نقرر ما يأتى :

أولاً : أن شوقي قد طرق في بردته نواحي عدة لم يطرقها صاحبه وقد أجاد فيها حتى لتكاد تعتقد ان الاول لو تحدث عنها لما بلغ مبلغه — من ذلك وصفه الشريعة الاسلامية وأثرها في نفوس العرب وسائر شعوب العجم وها وإقبالهم عليها ، واستمع اليه إذ يقول في ذلك :

شريعة لم تخرج المعقول عن [illegible] من لم يعصوب عن منطقه
يزن حقوق [illegible] التوحيد حيث [illegible] على السيف أو يوحي العصا

ثم يتحدث عن الخلفاء الراشدين وسائر قادتهم واخلاصهم وغيرتهم على الاسلام والمسلمين ويصف ذلك شيئاً مما حدث لعمر عند موت الرسول ، وإليك بعض ما قاله في علي وعثمان رضي الله عنهما :

من للامام إذا ما فض مزدحماً يجمع في ما في القوم مزدحم
الذاخر المذب في علم وفي أدب والناصر الندب في حرب وفي سلم
أو كابن عفان والقرآن في يده يحنو عليه كما يحنو على القطم
يجمع الآي ترتيباً وينظمها عقداً يجيد الليالي غير منفصم

ثانياً : أن بردة شوقي قد انتظمت طائفة من الحكم الخالدة ابتكر بعضها واقتبس بعضها الآخر من الأصل الذي عارضه . وقد تصرف في هذا الذي اقتبسه تصرفاً شهوداً مميزه وأظهر فضله فيه — هذا الى ما تمتاز به من جزالة الألفاظ وتنوع المفردات واستقرارها مما يدل على براعة الشاعر وانقياد العربية اليه .

أما بردة البوصيري فمن الاشياء الجلية التي تمتاز بها أنها :

أولاً صورة صادقة لنفس صاحبها كما حدثتك وترجمان ناطق بما يحسه نحو ممدوحه بخلاف بردة شوقي فانها محض ترسم واقتفاء وتقليد لا صلة فيها بين المادح والممدوح إذا قيست بالأصل المعارض ، اللهم إلا صلة العقيدة التي لا يستطيع تحديدها غير صاحبها . ولعل هذا الاخلاص والصلاح اللذين توفرا لصاحبها هما اللذان قدرا لها الذيوع والرواج بين آلاف من نوعها .

وما كان شوقي رحمه الله لينكر على صاحبه مكانته من الرسول أو ينافسه حبه له وتعلقه به وهو القائل في أدب الفضلاء وتواضع العظماء يخاطب الرسول :

مديحه فيك حبٌّ خالص وهوى وصادق الحب يملي صادق الكلم
الله يشهد اني لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم

وثالثاً : انك تلمح فيها المعانى مرتبة متصلا بعضها ببعض حتى لتكاد تحسبها فصولا مستقلة كل فصل له مطلعه ومقطعه ، بينما ترى بردة شوقى قد اختلطت فيها المعانى بحيث ينتقل من توسل الى مديح ثم إلى وصف ومناجاة ثم يعود بك إلى التوسل ويستطرد فيذكرك شيئا من الصفات على حسب ورودها فى ذهنه من غير ترتيب ولا انتظام

ورابعاً حسن الانتقال حتى لتكاد تقرأ القصيدة كلها فلا تحس فيها بتخلص أو انتقال وهذا لم يتوفر لشوقى لأن أبياته التى اختارها لتكون واسطة انتقال كانت نائية غريبة لا صلة لها بسابقها ولا علاقة لها بتاليها وهذا أراه فى عجزئة المعانى وعدم ارتباطها وتآلفها فى ذهن القارىء والسامع .

هذه موازنة اجمالية بين البردتين وسنعود اليهما فى فرصة أخرى بالتحليل الجزئى والمقابلة الكاملة .

﴿ الداليتان ﴾

نستطيع أن نقول بعد الذى قدمناه إن شوقى بك قد عارض ميمية البوصيرى فى جملتها ولكنا سنراه فى هذه القصيدة قد أمسك بريشته ونصب الأصل المعارض أمامه وأخذ ينقل منه ويستمليه جزءاً جزءاً كما يجلس المثال إلى صورة عبد الحليم صنعها. وهذا النوع من المعارضة على مافيه من تكلف واعتناء لو أجاد فيه الشاعر لوجد من الاعجاب والتقدير مايرضيه وقلما تخفى الفوارق أو تجهل الحسنات فى مثل هذا النوع

وقد قدر لهذه القصيدة التى نحن بصددها الرواج والانتشار حتى أصبحت تعرف بمطلعها « ياليل الصب » كما تعرف معلقة امرىء القيس بقفانبك ولها فى الأدب العربى وتاريخه مكانة سامية ولهذا تصدى لمعارضتها اكثر من اثنى عشر شاعراً كان من أفضلهم أمير الشعراء الذى نعالج دراسة معارضته اليوم – وسنعرف موازنتنا بالاصل وتابعه سراعاً لننظر الى أى حد أصاب شاعرنا فى معارضته .

يقول الحصرى فى مطلع قصيدته.

يا ليل الصبُّ متى غـدُهُ ؟ أقيامُ السَّاعةِ مَوْعِدُهُ ؟

ويقول شاعرنا :

مضْنـاكَ جفاه مرقـدُه وبكاهُ ورحَّمَ عُوَّدُهُ

وأنت ترى أن شوقى فضلاً عن اقتباسه هذا المطلع من مطلع نجم الدين القمراوى إذ يقول فى معارضته لهذه القصيدة .

قد مـل مريضك عوّدُه ورثى لأسيرك حسّدُه

ومن أحد أبيات الحصرى إذ يقول .

لم يبق هـواك له رمقاً فليبك عليـه عـوّدُه

فضلاً عن ذلك فانه لم يصل فى رأينا الى ما وصـل اليه صاحبه من الدلالة على طول الليل وما يعانيه المحب المهجور فيه .ويقول الحصرى بعد ذلك .

فبكاه النجمُ ورقّ له ممّا يراهُ ويرْصُدُه

ويحاكيه شوقى فيقول :

و يناجى النجمَ ويتبعُه ويقيم الليـل ويُقْعِدُه

ولا احالك تجهل الفرق بين مناجاة النجم ومتابعته للسّاهد وبين رقته له وبكائه من أجله ولا ريب أن البيت الأول يشتمل على ما تضمنه الثانى ويزيد عليه هـذا الابتكار الجميل . ويتحدث ابو اسحاق عن الحبيب ودلّه ونفوره فيقول .

أصبت عيْناى له شركاً فى النّوم فعزّ تصيُّدُه

فاذا ماجاء شاعرنا ليعارضه فى ذلك قال :

كم مد لطيفك من شركٍ وتأدّبَ لا يتصيّدُه

وهذه مبالغة ممقوتة عكست المعنى الذى عبر عنه صاحبه وأصبح بيته عاجزاً عن أن يتضمن أكثر من أنه نام ليرى طيف الحبيب حتى إذا تراءى له لم يشأ أن يراه أو تأدّب عن أن يراه.وعلى هذا المعنى يتضح لك التناقض الذى وقع فيه الشاعر إذا قرأت الى جانب ذلك البيت الذى يليه مباشرة :

فعساك بغمْض مسعُفه ولعل خيالك مُسْعِدُه ؟!

ولست أدرى بعـد ذلك لم يتمنى النوم وهو الشرك الذى يريد أن يتصيد به الحبيب إذا كان يتحرج من تصيده فيـه ؟ ! وأنىّ للخيال أن يسعده وهو يتردد فى الاستمتاع به ؟ !

ويقول البوصيرى :

خدّاك قدّ اعترفا بدمى فعلام جُفونك تجْحَدُه

ويجىء شاعرنا ليعارضه فى ذلك فيقول :

جحدتْ عينـاكَ زكيّ ودمى أكذلك خدكَ يجحدُه

وأنت ترى أن كل ما عمله انما هو قلب الاصل وجعل الصدر عجزاً والعجز صدراً ، وفضلاعن أن هذا ليس من المعارضة فى شىء فان الاول يثبت اعتراف الخدود بدمه والثانى يشك فى ذلك ويتساءل عنه !

من هذه الموازنة السريعة نستطيع أن نقول إن المعانى المشتركة بين الشاعرين وما اكثرها كان الاول أبعد فيها منالاوأحسن اختياراً وأسمى مأخذاً . ولم نر معنى قد اقتبسه شاعرنا فتصرف فيه على النحو الذى رأيناه فى البردة وصقله صقلا يميزه ويدل على ما فيه من مجهود وابتكار. ولقد اسهب كل منهما فى ناحية غير التى أسهب فيها صاحبه . وفى اعتقادى أن المعانى التى انفرد بها شوقى كانت مثلاً أعلى فى سمو الخيال ودقة التصوير واتساق الالفاظ ، ولو تعرض لها ابواسحاق لماتمنى له أن يأتى بأبلغ منها واليك طرفاًمن هذه الابيات التى انفرد بها وهى تصور لك الحب فى أعلا درجاته :

ما بال العاذل يفتحُ لى باب السلوان وأوصدُه !
ويقول تكاد تجنّ به فأقول وأوشك أعبُدُه !
مولاى وروحى فى يده قد ضيّعها سامتْ يَدُه

السينيتان

لقد كان من السهل علينا أن نوازن بين القصيدتين السابقتين وبين نظيرتيهما لأن شوقى فيهما كما رأيت كان يسير هو وصاحب الأصل الذى يعارضه فى اتجاه واحد وكان إما أن يقلّد ذلك الأصل أو ينسج على منواله. أما هاتان القصيدتان فان الشاعرين لم يتفقا فيهما إلا فى الوزن والقافية وطفق كل بعدذلك يتغنى بليلاه ـ فعكف البحترى على وصف الايوان وما على حوائطه من صور ونقوش وتماثيل : وصفه وهو كذلك فى عنفوان الدولة وشبابها ، ثم وصفه بعد أن زالت الدولة واقفرت جنباته وعبثت به الأيام ومشت عليه يد الزمن الجائر فمحت طلاوته ومسحت رونقه ورواءه — ثم وصف فى طريقه الخمر ومجالسها وأثرها فى النفوس ورأينا شوقى يحن الى مصر وساكنيها فيذكر الجزيرة وجمال موقعها ويخلع عليها من رائع التشبيهات وجمال الصفات ما لم يجربه لسان شاعر من قبل — ثم يتحدث عن الجيزة وحقولها ومزارعها وعن الاهرام وأبى الهول وغيرهما من مفاخر مصر .

وبعد ذلك ينتقل بذهنه الجبار طفرة الى الاندلس فيصف لك ديار بنى الأحمر ويتحدث عن حصن غرناطة وقصر الحراء وأبهائه وقبائه ونقوشه وتهاويله ، ثم ينتقل بك بعد ذلك الى وصف شبه الجزيرة وجوها الصافى وهوائها العليل ويتحدث عن رياضها وحراجها وحقولها وجنانها ويذكر بعد كل ذلك فضلها عليه وعلى بنيه .

هذه نظرة عامة فى القصيدتين وسنعرج عليهما مسرعين لنتبين مبلغ توفيق كل منهما وإصابته .

لقد ذكر البحترى اكثر من عشرة أبيات فى شكوى الزمان وبث ما يعانيه من بؤس وعناء ثم تخلص إلى غرضه وهو وصف الإيوان بهذا البيت الجميل :

حضرت رحلىَ الهموم فوجّهـــــــتُ إلى أبيض المدائن عنسى

وتخلص شاعرنا الى الحنين الى وطنه بهذا البيت الرائع :

وطنى لو شُغلتُ بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

وهذا البيت فضلا عن انّه وصلة مناسبة بين ماقبله وما بعده فانه بيت خالد جمع الى جزالة اللفظ شرف المعنى واصبح مثلا سائراً فى حب الوطن والحنين اليه .

ولقد تسمع مطلع البحترى :

صُنتُ نفسى عمّا يدنس نفسى وترفعت عن جدى كل جبس

وتسمع الى جانبه مطلع شوقى :

اختلافُ النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

فتحس فى الأخير بروعة وجلال وترى فوق ذلك المناسبة القوية بينه وبين المعانى التى يريد أن يتحدث عنها وهى الحنين والذكرى ـ وقد زاده هذا الالتفات البديع رونقاً وجمالا .

وبعد ، فان الحق يقضى علينا أن نعترف لشوقى فى هذه القصيدة بالاجادة والابداع ، وقد لانكون مغالين إذا قلنا انه قد فاق صاحبه وفضله فى نواحٍ كثيرة لأنه هنا إنما يعبر بحق عن إحساس فياض ويترجم عن عاطفة متقدة ويصور لنا شعوراً صادقاً نحو وطنه ومستقر أهله وعشيرته إن لم يتم على شعور أبى عبادة نحو كسرى وايوانه فانه لايقل عنه قوة وأسراً ولايتردد شوقى فى أن يصرح لنا بذلك فيقول :

وعظ البحترى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

وقد تمتاز سينية شوقى إلى جانب ماتقدم بحسن السبك ومجانبة الاغراب وانسجام الألفاظ وسهولتها ويندر أن تعثر فيها بأكملها على مثل قول البحترى يصف الايوان:

مغلق بابه على جبل القبق إلى دارتى خلاط ومكس

حلل لم تكن كاطلال سعدى فى قفار من البسابس ملس

وقد حملت هذه القصيدة بين طياتها كثيراً من المعانى الخالدة التى لم يسبق إليها الشاعر وضمنها غير قليل من الحكم البالغة والأمثال الرائعة والأجزاء التى تصدى لوصفها من وادى النيل قد أزرى فيها بايوان كسرى وواصفيه - وتأمل حسن التعليل وروعة التصوير فى قوله يصف الجيزة :

وأرى الجيزة الحزينة تكلى لم تفق بعدُ من مناحة رمسى

أكثرت ضجة السواقى عليه وسؤال اليراع عنهُ بهمس

وقيام النخيل ضفرن شعراً ونجردن غير طوق وسلس

ثم انظر إلى هذا الثوب الجميل الذى خلعه على الجزيرة وموقعها من النيل حيث يقول

هى بلقيسُ فى الخمائل صرحٌ من عباب وصاحب غير نكس

حسبُها أن تكون للنيل عرساً قلبها لم يجن يوماً بعرس

ليستْ بالأصيل حلةَ وشىٍ بين صنعاء فى النياب وقسِّ

قدَّها النيلُ فاستحت فتوارت منه بالجسْر بين عُرْى ولُبسِ

وهذا البيت الاخير له من نفسى مكانة خاصة، وما مررت به إلا استرعانى ما فيه من جلال وجمال .

وما أشد اعجابى بشوقى وعبقريته إذا رأيته يزفر زفرة الألم على فرقة ذلك الوطن العزيز ويترجم عن حزنه الكامن وحنينه الطافح بتلك الأبيات الخالدة :

يا ابنة اليمِّ ما أبوك بخيلٌ ما له مولعاً بمنعى وحبْسى؟

أحرامٌ على بلابله الدَّو حُ ، حلالٌ للطير من كل جنس؟

كل دارٍ أحقُّ بالأهل إلا فى خبيث من المذاهب رجس

نفسى مرجلٌ وقلبى شراع بهما فى الدُّموع سيرى وأرمى

وإذا انتقلت معه الى حيث يصف قصر الحمراء بعد أن لعبت به يد البلى ومحت جدَّته حادثات الزمان ، رأيت صفاء الفكر ودقة الملاحظة وعرفت كيف كانت منزلة

هذه الاطلال المتداعية والرسوم الدراسة من نفس الشاعر تملى عليه فيكتب وتوحى اليه فيقول :

مشت الحادثات فى غرف الخـ ـراء مشى النَّمى فى دار عُرس
هتكت عزة الحجاب وفضّت سِدّةَ الباب من سمير وأنس
عرصاتٌ تخلتْ الخيلُ عنها واستراحت من احتراس وعسّ

ثم نراه بعد ذلك يشرف بخياله الفسيح على شبه الجزيرة ويلقى عليها نظرةً جامعة تصور لك صفاء سمائها واخضرار أرضها وجمال رباها،ويقف منها فى النهاية موقف المتواضع المعترف بالجميل ويناجيها قائلا :

يا ديارا نزلت كالخلد ظلاّ وجنى دانياً وسلسال أنس
محسنات الفصول لا ناجرٌ فيـ ـها بقيظٍ ولا جمادى بقرّس
لا تحس العيون فوق رباها غير حور حوٍّ المرشف لُعس
كسيتْ أفرخى بظلك ريشاً ونما فى رباك واشتد غرسى

ثم يختتم قصيدته بتلك الحكمة الخالدة :

وإذا فاتك التفاتٌ الى الما ضى فقد غاب عنك وجه التأسّى

حينما يختتم البحترى قصيدته بهذا البيت الغريب الذى لا يشعر بالانتهاء فيقول :

وأرانى من بعدُ أكلف بالاشرا ف طراً من كل سنخٍ وأنس

تلك إلمامة وجيزة عن هذه القرائد الثلاث التى هى فيما نعتقد من أروع ما جادت به قريحة شوقى : تلمح فيها التحبير والتأنق فى تخير الالفاظ واصطفاء المعانى — ولا نستطيع أن نقول اننا بهذه النظرة الخاطفة قد استوعبناها دراسة وتحليلا ، فذلك ما لا يسمح به فراغنا وفراغ هذه الصفحات كما أسلفنا، ولا يزال كل بيت من أبياتها كنزاً مملوءاً بالنفائس من أية ناحية أتيته عثرت فيه على جديد وسنفرد فى المستقبل لكل واحدة من هذه القصائد فصلا خاصاً نتناولها فيه بالتحليل والتمحيص ونقف القارىء على ما لا نستطيع وقوفه عليه فى هذه العجالة .

ونعتقد أن شعر شوقى فى مجموعه ثروة عقلية لا يستطيع النشء الانتفاع بها إلا إذا درسها الادباء والمحققون دراسة تجلى غامضها وترشد الى مواضع الجمال منها ، ولا عجب فقد تهيأ لصاحبها من الثقافة العالمية والتهذيب الفكرى والنبوغ الشخصى ما يندر اجتماعه لغيره وسيظل هذا الميراث الذى قدر لمصر أن تحتويه خالداً

ملحوظ المكانة لايقل روعة وجلالا عماحملته اليناصحائف التاريخ من تراث الشعراء فى مختلف العصور .

ولئن كان مصاب الشرق فيه عظيما وخطب مصر فيه اليماً فلهما فى هذا التراث الخالد عزاء وسلوان ؟

طه محمد عبده

◆◆◆◆◆

استعداد شوقى

لعلنا لا نغلو اذا قلنا إنه لم يتهيأ لشاعر أىّ شاعر من البيئات المكونة والعوامل المواتية ماتهيأ لشوقى فى اخراج شاعريته وانضاج عبقريته : فقد نشأ فى بحبوحة من العيش الوارف الظلال ، البعيد ما بين جنبات النعيم ، فشبّ وترعرع تحوطه النعمة السابغة وتحدوه السعادة الكاملة وتلحظه عناية بيت اسماعيل ، وما أدراك ما بيت اسماعيل . فكان من هذه الناحية على ما كان عليه ابن المعتز الشاعر الخليفة من بنى العباس ، ولهذا من الأثر فى توسيع ميدان الشعر وتمديد متناول الوصف ما يجعل الشاعر طائر الخيال ساحر البيان . وهذا ما كان عليه فقيدنا العزيز فقد تفجر فيه الشعر عن نبع فياض مكث يفيض على الشعب العربى نصف قرن كامل نميراً صافياً وسلسبيلاً جارياً ، وكلما نهل منه وعلّ اشتد ظمؤه والتهب أواره ، فلله أنت يا شوقى ولك الله أيها الشعب الحزين !

من عادة الشعراء أن يكون لكلّ هوًى يحسن أن يقول فيه . فاذا ما قصد الى غيره بان نقصه وضعفت شاعريته ، ولكن شاء الله جلت قدرته أن يركب شوقى على غير ما ركب الشعراء فلم يجعل له نفساً واحدة كما جعل لكل شاعر ، وانما أودع بين جنبيه نفوساً لكل غرض من الشعر نفس اذا أراد حملها فبلغ بها ما يريد وفوق الذى يريد ، أو هو جعل له نفساً واحدة ولكنها ذات اصباغ وألوان وذات قدرة معجزة على التشكل بما يطلب من أشكال : فهى كالماء الصافى يتلون بتلون الاناء ، أو هى كالعجينة المرنة تطيع المصور لها أنى شاء . ولست أرى لذلك فى شوقى من مصدر بعد الذى ذكرت من سعة الخيال إلا وفاءه لكل ذى صلة به وفاء ليس يعدله وفاء .

نعم وفى شوقى لكل ذى صلة به ، وكلما كانت الصلة عامة اشتد تأثيرها فيه على عكس المعروف فى طبيعة الانسان ، حتى أصبح كالسلك الكهربائى يتموج لأدنى اهتزاز فترى لتموجاته من الاثر البالغ مايحرك سواكن الاشياء ويبدد غياهب الظلماء فاذا الناس فى دهشة منه مأخوذون ! وفى شوقى للطبيعة فى جميع مظاهرها فوصفها فى جميع أثوابها . ووفى لنفسه فأعطاها حقها وحفظ لها حريتها وقدسها . ووفى لاسرته فكان الحاكم بغير صولجان المطاع المحبب الى كل جنان . ووفى لاصدقائه فكان لأصغرهم الأب الشفيق ولوسطهم الأخ الشقيق ولأكبرهم الابن الحقيق . ووفى لبيت اسماعيل فصاغ له من حبات قلبه ماصاغ وأبدع فى ذلك ما شاء له الابداع . ووفى لمصر أم الجميع فكان قيثارتها المرتلة لبشائر أفراحها فى غير بطر ولا أشر المرددة لألحان أتراحها فى غير يأس ولا ضجر منذ كانت مصر والتاريخ لم يكن الى ان اختاره الله لجواره كان الله له وأحسن عزاءنا فيه .

ولقد أبى وفاؤه رحمه الله أن يقف به عند هذا الوطن الخاص فتعداه الى غيره من أوطان ذات ضروب وانسان . تعداه الى الوطن العربى فحمل لواء لغته وآخى شعوبه فكان السبّاق الى حيث لم تقف به غاية ولم تحد منه نهاية ، والى الوطن الاسلامى فأرسل فى روحية الاسلام وفى صاحب دعوته من رصين الشعر ما علا به الى السماء حتى جاوز الجوزاء . ثم الى الوطن التركى العثمانى معقد الخلافة ومشرق التاج فربط بينه وبين كل ما تقدم من أوطان رباطاً وثيقاً ليس فى مقدور غيره من انسان . بل الى العالم جميعه فيما تدعو اليه الأديان وتريده فضية السلام والوئام فكان رسول الانسانية الصادق التعبير وداعية الأخلاق الشديدة التأثير ، وبهذا الاستعداد وهذه المواهب وهذا الاتجاه خلق شوقى لذكره مكانة الخلود ما

السباعى السباعى

أين شوقي من الوطنية

ان الفجيعة فى أمير الشعراء حملتنى المساهمة فى تكريم تلك العبقرية الفذة وتخليد ذكر صاحبها العظيم بالكشف عن ناحية من نواحيها المتفرقة .

وبعد لأى أخذتْ الناحية الوطنية فى تلك الروح العالية . وقبل الخوض فيها هل لك ياعزيزى القارىء أن تصاحبنى فى الطواف بها لا على أن تكون كفتى موسى بل نتبادل الرأى ونتعاون على الفهم ونغلق وراءنا كل باب نلجه إلى أن نصل إلى قرار أقرك وتقرنى عليه ؟ أظنك لا تمانع . وقبل كل شىء رأيت التحقق من ماهية الوطنية، وإنى أرى وترى معى أن الرأى الذى يصفها بشعور خفى يحمل الفرد دائماً على خدمة وطنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا هو أقرب الأقوال لتفهم ماهيتها . إذنْ فلنمسك بتلابيبه ونطبقه على الراحل الكريم لنعرف إلى أى مدى وصل فى ذلك المنحى . ولما كانت الوطنية وليدة للوطن أخذت أبحث عن التحديد العلمى له فوجدت أن صاحبنا شذّ عن ذلك التحديد وكوّن لشخصيته الجبارة وطنين أحدهما خاص به وهو مصر وثانيهما عام وهو البقاع التى يقطنها الناطقون بالضاد .

من أجل ذلك وجهت دفة القلم ناحية وطنيته المنبعثة من وطنه الخاص تاركاً قسمها الآخر لأعلام الأدب لاخراجها بما يلائمها من روعة وجلال إذ هم أجدر الخلق بتصويرها . ولا اخالك أيها القارىء تخالفنى فى ذلك .

نفى أمير الشعر فأحسّ بروعة النفى وشتت فى بلاد نائية عن الآل والصحب والولد فلمس لوعة النأى . أتدرى لماذا نفى ولأى أمر شرد ؟ لأن له وطنية ضايقت المستعمرين وتحققوا خطرها على مركزهم فى مصر . من أجل ذلك كتب عليه النفى وسجل عليه التشريد فقاوم ما فيهما من روعة ولوعة برباطة جأش وصبر جميل بالرغم من انتقام العدو وتحكم الخصم وابتسام الشامت . يا لله ما سبب هذا البلاء ؟ وطنية صادقة وعاطفة نبيلة تحت تأثيرها قام بما تشاهده معى فى هذه الأبيات من غرسه حب الوطن فى نفوس الشعب وافتداءه بالغالى والنفيس بل ذهب إلى جعله ديناً للأحرار :

لنا وطنٌ بأنفسنا نقيه وبالدنيا العريضةِ نفتديهِ !

لا تلوموها ! أليست حرة وهوى الأوطان للأحراردين؟

ثم اسمع اليه يحن إلى وطنه حنيناً ليس له مثيل فيما سبقه :

وطنى لو شُغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى !
وهفا بالفؤاد فى سلسبيلٍ ظمأ للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعةً ولم يخل حسى

ثم لاحظ معى تجسم هذا الحب فى قوله :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المجابا
أدير اليك قبل البيت وجهى اذا فهت الشهادة والمتابا
انى أحب وإن شقيت به وطنى وأوثره على الخلدِ

لعلك تقرنى أيها السيد على أن هذا أولى خدماته لوطنه . ثم تعال نفتحى ناحية غير هذه تجد أن شوقى رأى أن حياة الجماعات لا تكون قويمة الا اذا كان أساسها العلم فدعا اليه وطالب به بقوله :

ربوا على الانصاف فتيان الحمى تجدوهمو كهف الحقوق كهولا
فربّ صغير قوم علموه سما وحمى المسومة العرابا
وكان لقومه نفعاً وفخراً ولو تركوه كان اذاً وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتى يحدث العجب العجابا

ثم أصغ اليه فى خطاب المتطلعين إلى المعالى :

ياطالباً لمعالى الملك مجتهداً خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يُبن ملكٌ على جهل واقلال

ولم يغمط ـ المرأة التى يصفها بحجر الأساس فى الأسرة وقواعد المجتمع وأركانه منذ قام الى يوم ينفض ـ حقّها من التعليم بل أوجب تعليمها ضارباً أحسن الأمثال برسول الله عليه السلام وبنسائه الشريفات:

هذا رسول الله لم ينقص حقوق الأمهات

العلم كان شريعة لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسياسة والشؤون الأخريات

ولم يسكت على ذلك بل وخم عاقبة جهلها :

وإذا النساء نشأن فى أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

ثم اتجه ناحية الشباب مخاطباً دماءهم الحارة عن أهميه العلم لمطامحهم ومركزه من أمتهم :

هل علمتم أمة فى جهلها ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها إنما السائل من لون الاناء
خذوا العلم على أعلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرأوا تاريخكم واحتفظوا بفصيح جاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بسلطان ثنا خلقت نصرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فان هى ضاقت فاطلبوه فى السماء !

ثم ختم بنتائج الجهل وشؤمه على الامم :

الجهل لا تحيا عليه جماعة كيف الحياة على يدىْ عزريلا

بذلك نخرج من هذا الباب بسلام مقرين تلك الخدمة أيضاً ثم لنبحث عن باب آخر نلجه : نرى أن شوقى لاحظ أن لا أمة بلا خلق :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وبدونها لا مدنية ولا حضارة .

وليس بعامر بنيان قوم اذا أخلاقهم كانت خرابا
وإذا ما أصاب بنيانَ قوم وهى خلقٍ فانه دهى اسّ

ثم اتجه ناحية العمال مخاطباً بلغة المعلم الحكيم :

أيها العمال افنوا العمر كداً واكتساباً
واعمروا الارض فلولا سعيكم أمست يباباً
اتقنوا يحببكم الله ويرفعكم جنابا
واهجروا الخمر تطيعوا الله او ترضوا الكتابا
انها رجس فطوبى لامرىء كف وتابا
ترعش الايدى ، ومن يرعش من الصناع خابا

ثم قال مشيداً بالطموح :

شباب قُنَّعٌ لا خير فيهم وبورك فى الشباب الطامحينا

ثم نجهم مظهر بساطة الحياة ووجوب العمل :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان

بعد ذلك الوعيد حبب اليهم الحياة لانها سلم الخلود :

ومن سرّه ألا يموت فبالعلا خلد الرجال وبالفعال النابه
ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه

ثم يزيد فى الترغيب :

ورووا النبوغ فمن ناله تلقى من الحظ أسنى التحف
إمرة الناس همة لا تأتى لجبان ولا تسنى لجبس

ألا ترى معى أن شوقى قام بقسطه فى حمل لواء النهضة المصرية كشاعر قومى ؟ لقد استنهض الأمة وأرشدها الى صلاحها وشجع شبانها وبث فيهم روح النشاط وقوى من قوائمهم وحثهم على الرقى ورفعة الوطن . أظنك أسبق منى فى الإيمان بما آمنت . إذن لنجعل خاتمة المطاف ما قام به شخصيا لاعلاء شأن وطنه لأنى أشعر بسحابة من النصب كادت تقاربك أيها الصاحب العزيز .

إن تلك العاطفة المتأججة فى نفس شوقى خلقت منه بطلا شجاعاً جالد أترابه الشعراء ونازل لداته إخوان القوافى الى أن حملهم على مبايعته بالإمارة فى ملأ من الناس قال فيه منافسه « شاعر النيل » :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً وهذى جموع الشعر قد بايعت معى

وبذلك وضع تاج إمارة الشعر على هامة وطنه الذى يحبه ويتعشقه كما عرفت مستولياً عليه-وسالباً إياه من موطنه الذى ظهر ونبغ وعاش فيه. والى هنا ياسيدى القارىء الكريم لا أستطيع حبس عبرة تترقرق فى مآقىّ فاسمح لى بذرفها على رجل هذا شأنه وعز عليه أن يترك ذلك التاج دون هيل وهيلمان فاتجه الى المسرح وأنشأ له الروايات المعروفه ولم ينس فن الغناء فقام بترقيته بما تسمعه من الموسيقار الفنان محمد عبد الوهاب . بذلك تم له ما أراد وترك وراءه تاجاً مرصعاً بأنفس اللآلىء الفنية . فرحمتك اللهم بهذا الراقد فى مهد الأبد ؟

محمد على فرج الله